روبرت جيمس والر

جسور مقاطعة مادیسون

رواية

kindle
مكتبة الحبر الإلكتروني
@bookkn
@d110d

جسور مقاطعة ماديسون

روبرت جيمس والر

ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي

facebook.com/alkarmabooks

twitter.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢١

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢١

العنوان الأصلي: The Bridges of Madison County

Copyright © ١٩٩٢ Robert James Waller

Interior photographs by Robert James Waller

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

حقوق الترجمة © محمد عبد النبي

أبيات قصيدة «أغنية أنجس المتسكع» من ترجمة الأستاذ حسن حلمي، من كتاب: و.ب. ييتس، قصائد مختارة، القاهرة: دار شرقيات، سلسلة «عيون الأدب الأجنبي»، ١٩٩٥.

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.

نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

والر، روبرت جيمس، ١٩٣٩-٢٠١٧

جسور مقاطعة ماديسون: رواية / روبرت جيمس والر؛ ترجمها من الإنجليزية محمد عبد النبي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢١.

٢٦٤ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٩٧٨٩٧٧٦٧٤٣٤٧٢

١- القصص الأمريكية.

أ- عبد النبي، محمد (مترجم).

ب- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩١٥٧ / ٢٠٢١

١ ٣ ٥ ٧ ٩ ١٠ ٨ ٦ ٤ ٢

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

إلى الصقور

قالوا عن «جسور مقاطعة ماديسون»

«والر» حَكَّاء مُدهش»

«واشنطن بوست»

«حكاية حب يبقى ويدوم»

«سان فرانسيسكو كرونيكل»

«كتاب آسِر وممتع... فلتقرأه بقلبك!»

«ماري هيجينز كلارك»

«كتاب يضيء ويشع»

«ميامي هيرالد»

«عمل بليغ، جياش العاطفة، ويمس القلوب... لم أستطع وضعه جانبًا قبل الانتهاء منه»

«باربرا تايلور برادفورد»

«قصة قادرة على إذابة كل قلب، عدا أولئك الذين تحجرت قلوبهم تهكمًا وتشاؤمًا... قصة شجية مؤثرة، وسبب قدرتها على تحريك العواطف هو تحديدًا إمساكها بالواقع الخشن كما هو»

«إنترتينمنت ويكلي»

«يحدث مرة كل فترة من الزمن أن تظهر قصة ساحرة، درة خلابة في صورة كتابة، قطعة سردية خيالية تعوض المرء وزيادة عن جميع الكتب العادية التي يقرأها في أغلب الأوقات. و«جسور مقاطعة ماديسون» هو هذا الكتاب»

«إنديانابوليس نيوز»

«مُحكم مثل دمعة»

«أورلاندو سنتينال»

«قصة عصية على النسيان»

«كليفلاند بلين ديلر»

«إذا كنتَ مؤمنًا بالقدر... إذا كنت رومانسيًّا... فسوف تجد في قصة الحب هذه واحة للأنس والمسرة»

«كنساس سيتي ستار»

«كتاب مترع بالعاطفة الحارة والحساسية... مكتوب بيد كلها ثقة... ودرجة نادرة من الرقة والبساطة»

«ميلووكي جورنال»

«قصة حب راقية حقًّا، تدور حول التضحية والاختيارات الأليمة، واضطرارنا إلى الصمت عن أهم ما في حياتنا»

«سياتل تايمز»

«هذا الكتاب مثل جوهرة صغيرة، يمكن للمرء بسهولة أن يلتهمه بسرعة خلال أصيل خامل واحد في باحة بيته. لكن لا أنصحك بهذا، بل تمهل وتذوق كل صفحة كما قد تتذوق رشفة من أفخر أنواع النبيذ، فقد صمم الكاتب قصة حب على الطراز القديم، يمكنها أن تمسك بعقلك وقلبك دونما إفلات»

«توليدو بليد»

«أكثر من مجرد رواية عاطفية... فهي تحمل في داخلها القوة، والحكمة، والثقة ـ كل ذلك في حيوية مذهلة»

«سان أنطونيو إكسبرس نيوز»

«رواية مفعمة بالبصيرة والحساسية الحية بحيث نعيش معها كشفًا مفاجئًا: أن ندرك أن ذلك هو الحب، يُحكى لنا على يد مؤلف يبدو كأن فهمه مستمَد من حقيقة كونية هائلة»

«صنداي أوريجونيان»

««جسور مقاطعة ماديسون» **أعجوبة**... إن رقصة العشاق ما بين «روبرت» و«فرانشيسكا» مرهفة وذكية وعذبة إلى درجة موجعة، ومتمهلة بما يكفي لأن تُبقي في جوفك رعشة لذيذة

متواصلة... ما الذي يمكن أن يقال أيضًا سوى أن هذه الحكاية بديعة إلى أقصى حد؟»

«ويتشيتا إيجل»

«هذه قصة حب على الطراز القديم. إن [«والر»] ثبتني في موضعي معجَبًا ومندهشًا طوال الكتاب»

«رينولدز برايس»

«قصة حب سوف تستولي عليك وتأسرك بسحرها. يعَد هذا العمل النادر المستنير إنجازًا يضع «روبرت والر» في مقدمة كُتاب القَصص الجديد لهذا البلد. اقرأوها، رجاءً، وهذا ليس أمرًا، بل دعوة هذه السطور»

«تولسا ورلد»

«كتاب مترع بالعاطفة... سوف يختاره القراء ويطالعونه مرارًا وتكرارًا لكي ينصتوا إلى النبرة الشعرية في نثر «والر»»

«ميلكواي سنتينال»

البداية

تولد بعض الأغنيات عارية من زهر السوسن الليلكي، ومن غبار ألف طريق زراعي. وأغنيتنا هذه إحدى تلك الأغنيات. قرب نهاية الأصيل، في خريف عام ١٩٨٩، كنت جالسًا إلى مكتبي،

أنظر إلى مؤشر يومض على شاشة الكمبيوتر أمامي، عندما دق جرس الهاتف.

كان على الطرف الآخر رجل يُدعى «مايكل جونسن»، كان سابقًا من سكان ولاية أيوا، ويعيش في فلوريدا في الوقت الراهن. أرسل إليه صديق لي، من أهل أيوا، بأحد كتبي، وقد قرأه «مايكل جونسن»، وكذلك قرأته أخته، «كارولين»؛ وكان لديهما قصة يعتقدان أنني قد أبدي اهتمامًا بها. كان شديد التحفظ، وامتنع عن قول أي شيء حول القصة، عدا أنه هو و«كارولين» على استعداد للسفر إلى أيوا ليتحدثا إليَّ عنها.

أثار فضولي مجرد استعدادهما لبذل مثل هذا الجهد، على الرغم من كوني أميل عادة للشك فيما يصادفني من قبيل تلك العروض. وهكذا وافقت أن ألتقي بهما في دي موين الأسبوع التالي. جرى التعارف بيننا في أحد فنادق سلسلة «هوليداي إن» قريبًا من المطار، وتضاءل الحرج والارتباك شيئًا فشيئًا، وجلس الاثنان قُبالتي، بينما يهبط المساء على الدنيا في الخارج ويتساقط ثلج خفيف.

استخلصا مني وعدًا: لو قررت ألا أكتب القصة فعليَّ أن أوافق على ألا أفشي أبدًا أي شيء مما جرى في مقاطعة ماديسون، بولاية أيوا، عام ١٩٦٥ أو أي أحداث أخرى ذات صلة مما تبع ذلك خلال الأربع والعشرين سنة التالية. لا بأس، طلب معقول. فعلى كل حال، إنها قصتهما وليست قصتي.

وهكذا أستمع إليهما، أستمع منصتًا بجدية، وأطرح أسئلة صعبة. وهما يتكلمان، وأخذ كلامهما يتواصل ويتواصل. لم تكبح «كارولين» دموعها مرة بعد أخرى، وكافحَ «مايكل» لكيلا يبكي. عرضا عليَّ وثائق وقصاصات من مجلات ومجموعة من دفاتر اليوميات كتبتها والدتهما، «فرانشيسكا».

كانت خدمة الغرف تأتي وتذهب. ومزيد من القهوة يُطلب. بينما يتكلمان، شرعت أتخيل الصور. في مستهل الأمر، لا بد أن تتشكل أمامك الصور، ثم تأتي الكلمات. وقد بدأت أسمع الكلمات، بدأت أراها على صفحات الكتابة. عند وقت ما، بعد منتصف الليل بقليل، أوافق على كتابة القصة ـ أو على الأقل أن أحاول ذلك.

لم يكن قرارهما بأن يكشفا هذه المعلومات للناس كافة بالقرار السهل عليهما. كانت الظروف المحيطة بالأمر حرجة، والقصة تخص أمهما، وتخص أباهما أيضًا، وإن تماسَّت معه من بعيد. أدرك كلٌّ من «مايكل» و«كارولين» أن ظهور القصة قد يسفر عن نميمة رخيصة وتقليل قاسٍ من شأن ما يتذكره الناس عن الزوجين «ريتشارد» و«فرانشيسكا جونسن».

ومع ذلك فقد شعر كلاهما بأن هذه الحكاية المميزة تستحق أن تُروى، لا سيما في عالم يتحطم فيه الالتزام الشخصي بجميع أشكاله ويصبح فيه الحب مسألة هينة، كأنه وسيلة أخرى من وسائل الرفاهية. وقد آمنت برأيهما هذا آنذاك، بل إيماني به الآن أكثر، لقد كان حكمهما على الأمر صائبًا.

خلال رحلتي للبحث والكتابة، طلبت أن ألتقي بـ«مايكل» و«كارولين» ثلاث مرات أخرى. وفي كل مناسبة، يسافران حتى أيوا، من دون تذمر، فإلى هذا الحد بلغ بهما الحرص على التأكد من أن تُروى القصة بدقة. في بعض الأحيان كنا نكتفي بالحديث وحسب؛ في أحيان أخرى كنا نستقل سيارةً ونسير ببطء على طرقات مقاطعة ماديسون وهما يشيران نحو أماكن لعبت دورًا بارزًا في القصة.

إضافةً إلى مساعدة «مايكل» و«كارولين» لي، فإن القصة كما أرويها هنا تعتمد على المعلومات الواردة في دفاتر يوميات «فرانشيسكا جونسن»؛ وأبحاث أجريتها في الأجزاء الشمالية-الغربية من الولايات المتحدة، وعلى وجه الخصوص سياتل ومدينة بيلينجهام في ولاية واشنطن؛ وبحث تواصل في هدوء في مقاطعة ماديسون، التابعة لولاية أيوا؛ ومعلومات جُمعت تدريجيًّا من المقالات الفوتوغرافية الخاصة بـ«روبرت كينكيد»؛ والعون الذي قدمه محررو المجلات؛ والتفاصيل التي وفرها صناع الأفلام الفوتوغرافية ومعدات التصوير؛ والأحاديث المطولة مع كثير من كبار السن الرائعين في ملجأ مقاطعة بارنزفيل، ولاية أوهايو، ممن تذكروا «كينكيد» منذ أيام صباه.

وعلى الرغم من الجهد الاستقصائي، تتبقى فجوات، وفي مثل تلك الحالات أضفت القليل من مخيلتي، إنما فقط عندما كنت أستطيع أن أتوصل إلى أحكام منطقية معقولة بناءً على المعرفة التي حصدتها خلال عملية بحثي، أي تلك الألفة الحميمة التي حققتها مع شخصية كل من «فرانشيسكا جونسن» و«روبرت كينكيد». وإني على ثقة من أنني اقتربت للغاية مما حدث بالفعل.

ثمة فجوة كبيرة في مسار الأحداث، تتعلق برحلة «كينكيد» عبر ولايات الشمال الأمريكي، والتفاصيل الدقيقة لها. نحن نعرف أنه اتخذ هذه الرحلة، بناءً على عدد من الصور الفوتوغرافية التي نُشرت لاحقًا، وكلمة مقتضبة عنها وردت في دفاتر يوميات «فرانشيسكا جونسن»، وملاحظات بخط يده تركها مع محرر إحدى المجلات. مستعينًا بتلك المصادر كدليل استرشادي، تتبعت ما أعتقد أنه كان المسار الذي اتخذه من بيلينجهام حتى مقاطعة ماديسون في أغسطس من عام ١٩٦٥. وعندما توجهت بسيارتي صوب مقاطعة ماديسون، عند نهاية أسفاري تلك، شعرت كما لو أنني، من نواحٍ عديدة، أصبحت أنا نفسي «روبرت كينكيد».

تبقت مع ذلك مهمة أخرى كانت هي التحدي الأصعب في كل من بحثي وكتابتي وهي مهمة الإمساك بجوهر شخصية «كينكيد». إنه شخص محير، إذ يبدو في حين عاديًّا تمامًا، وفي أحيان أخرى يبدو أثيريًّا، بل ربما حتى طيفيًّا. فيما يخص عمله تمتَّع بمهنية لا تشوبها شائبة. ومع ذلك فقد نظر إلى نفسه وكأنه نوع غريب من حيوان ذكر أضحى باليًا في عالم يستسلم بوتيرة متزايدة لدرجات أعلى من التنظيم. وذات مرة تحدث عن «الأنين القاسي» لدقات الزمن في رأسه، ورأت «فرانشيسكا جونسن» فيه شخصًا يعيش «في أماكن غريبة ومسكونة بالأرواح، في نقطة تنتمي للماضي البعيد على مقياس داروين للتطور».

وتبقَّى سؤالان يأسران اللب بلا إجابة. أولًا، لم يكن بمقدورنا أن نحدد إلامَ انتهى الملف الفوتوغرافي لـ«كينكيد». نظرًا لطبيعة عمله، فلا بد أنه كان هناك آلاف من الصور الفوتوغرافية، والأرجح مئات الآلاف منها. لم يتم التوصل إلى تلك الصور أبدًا.

أفضل تخمين لنا أنه قد أتلفها جميعًا قبيل وفاته، وسيكون هذا متسقًا مع طبيعة رؤيته لنفسه ولموضعه في العالم.

السؤال الثاني يخص حياته منذ ١٩٧٥ وحتى ١٩٨٢. المعلومات المتوفرة قليلة للغاية. نعلم أنه كسب رزقًا متقطعًا كمصور أشخاص في سياتل لعدة سنوات، وواصل تصوير منطقة «بيوجيت ساوند». وعدا ذلك، لا شيء بين أيدينا. إحدى النقاط المثيرة للفضول أن جميع الرسائل المبعوثة إليه من إدارة الضمان الاجتماعي ومن وزارة شؤون المحاربين القدامى كانت تُوسم بعبارة «يرد إلى الراسل»، مكتوبة بخط يده، ثم تُعاد بالبريد من حيث أتت.

لقد تبدلت نظرتي للعالم عبر الإعداد لهذا الكتاب ثم كتابته، وتحولت طريقتي في التفكير، وفوق ذلك كله، انخفض مستوى التشاؤم لديَّ فيما يخص ما هو ممكن في مضمار العلاقات الإنسانية. بعد أن تعرفت على «فرانشيسكا جونسن» و«روبرت كينكيد» بينما أخوض غمار بحثي، اكتشفت أن حدود تلك العلاقات يمكن لها أن تتسع إلى أبعد مما اعتقدته في السابق. ولعلكم سوف تعيشون التجربة ذاتها من خلال قراءتكم لهذه القصة.

لن تكون المهمة سهلة، في عالم يشتد قسوة، فإننا جميعًا نعيش كلٌّ داخل صدفته المكونة من أحاسيس تغطيها القشور المتصلبة لجراح قديمة. لا أعلم بالتأكيد أين ينتهي الشغف العظيم وتبدأ العاطفة السخيفة. غير أن ميلنا للهزء بإمكانية هذا الشغف، ولتصنيف المشاعر الأصيلة العميقة على أنها عواطف ثملة، يزيد

من صعوبة ولوجنا مملكة الرقة، وهو المطلوب لكي نفهم قصة «فرانشيسكا جونسن» و«روبرت كينكيد». وأعلم أنه كان عليَّ أن أتغلب على ذلك الميل أولًا، قبل أن أستطيع البدء بالكتابة.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإذا ما قاربت ما يلي وقد عطلت إراديًّا ميلك للإنكار، وفقًا لتعبير «كولريدج»، فإنني على يقين من أنك سوف تمر بالتجربة ذاتها التي خضتها. بل إنك في تلك المساحات اللامبالية من قلبك، كما حدث مع «فرانشيسكا جونسن»، قد تعثر على موضع للرقص من جديد.

صيف ١٩٩١

«روبرت كينكيد»

في صباح يوم ٨ أغسطس ١٩٦٥، أحكم «روبرت كينكيد» إغلاق باب شقته الصغيرة ذات الغرفتين في الطابق الثالث من منزل قديم مشيد كيفما اتفق في بيلينجهام، من ولاية واشنطن. حمل حقيبة ظهر قماشية كبيرة ممتلئة بمعدات التصوير الفوتوغرافي وحقيبة ثياب، ونزل بهما الدرج الخشبي ومرَّ عبر الردهة إلى الجزء الخلفي، حيث كانت شاحنته «البيك-أب» الشفروليه القديمة مركونة في مساحة مخصصة لسيارات سكان البناية.

بداخل الشاحنة، كانت هناك بالفعل حقيبة قماشية أخرى، ومبرِّد متوسط الحجم، وحاملان للكاميرا بقوائم ثلاثية، وخراطيش من سجائر «كاميل»، وتُرمس، وكيس فاكهة. كانت علبة الجيتار في صندوق الشاحنة. رتَّب «كينكيد» الحقيبتين القماشيتين على

المقعد ووضع المبرِّد وحاملَي الكاميرا على أرضية السيارة. وثب داخل صندوق الشاحنة وثبَّت علبة الجيتار وحقيبة الثياب في ركن من الصندوق، ودعمهما باستخدام إطار احتياطي مُلقى على أحد جانبيه وربط كِلتا الحقيبتين بالإطار مستخدمًا حبل غسيل. تحت الإطار الاحتياطي المعطوب دسَّ قماشًا مشمَّعًا أسود.

صعد إلى الشاحنة وجلس وراء عجلة القيادة، أشعل سيجارة «كاميل»، وأخذ يراجع في عقله قائمة لوازمه: مائتا بكرة من أفلام تصوير متنوعة، معظمها من ماركة «كوداكروم» بطيئة السرعة؛ الحاملان ثلاثيا القوائم؛ المبرِّد؛ ثلاث كاميرات وخمس عدسات؛ سراويل الجينز والسراويل القماشية الكاكي؛ القمصان؛ وهو مُرتدٍ بالفعل صِدار التصوير. تمام. إذا كان قد نسي أي شيء آخر فيمكنه شراؤه في الطريق.

كان «كينكيد» مرتديًا سروال جينز «ليفايس» حال لونه، وحذاءً جلديًّا طويل الرقبة للسير في الحقول من ماركة «ريد وينج»، وقميصًا كاكيًّا، وحمَّالات بنطلون برتقالية. وعلى حزامه الجلدي العريض ثبَّت سكينًا سويسريًّا مطويًّا في جرابه.

نظر إلى ساعة يده: الثامنة وسبع عشرة دقيقة. دارت الشاحنة مع المحاولة الثانية، وتراجع بها خارج المَرْأب، ثم نقل السرعات يدويًّا، وتحرك ببطء على طول الزقاق تحت شمس يغشاها الضباب. مضى عبر شوارع بيلينجهام، باتجاه الجنوب نحو طريق «واشنطن ١١»، محاذيًا شاطئ «بيوجيت ساوند» لبضعة أميال، ثم اتبع الطريق السريع بينما يميل منحرفًا باتجاه الشرق قليلًا قبل أن يلتقي بطريق «الولايات ٢٠».

متوجهًا صوب الشمس، بدأ مسيرته الطويلة والمتعرجة عبرَ سلسلة جبال «الكاسكيد». راقت له هذه البلدة وشعر بانعتاق، وتوقف بين الحين والآخر لكي يسجل ملاحظات حول احتمالات مثيرة للاهتمام لحملات استكشافية في المستقبل أو ليلتقط ما كان يسميه «لقطات سريعة للتذكرة». كان غَرض تلك الصور الفوتوغرافية الخاطفة أن تُذكره بأماكن ربما يرغب في زيارتها مرة أخرى والعمل عليها بمزيد من الجدية. في وقت متأخر مِن الأصيل انعطف شمالًا نحو مدينة سبوكين، واتخذ طريق «الولايات السريع ٢»، والذي سيوصله إلى منتصف المسافة عبر الولايات الشمالية حتى دولوث، في ولاية مينيسوتا.

تمنى للمرة الألف خلال حياته لو كان لديه كلب، «جولدن ريتريفر»، ربما، من أجل رحلات مثل هذه، ولكي يحظى برفقة ما في بيته. لكنه كان كثير السفر، خارج البلاد في معظم الأحيان، ولن يكون هذا منصفًا للحيوان. لكنه فكر في الأمر على أي حال. بعد بضع سنين سوف يتقدم به العمر كثيرًا فلا يعود قادرًا على العمل الميداني الشاق. ربما أحظى بكلب عندئذ، هكذا قال مخاطبًا أشجار الصنوبر التي كانت تندفع على جانبيه من وراء الزجاج.

لطالما كانت رحلات بالسيارة مثل هذه تضعه في مزاجٍ مُواتٍ لتأمل حياته واتخاذ القرارات. وكان الكلب جزءًا من هذا المزاج. كان «روبرت كينكيد» وحيدًا بأشد ما قد تكون عليه الوحدة ـ طفل وحيد، كِلا الوالدين تُوفي، أقارب بعيدون فقدوا صلتهم به وفقد صلته بهم، وما من أصدقاء مقربين.

كان يعرف أسماء بعض الأشخاص، مثل الرجل مالك البقالة التي على الناصية في بيلينجهام، وصاحب متجر التصوير الفوتوغرافي الذي يشتري منه لوازمه. وله كذلك علاقات مهنية رسمية مع كثير من محرري المجلات. لكنه، عدا ذلك، يكاد لا يعرف أحدًا معرفة حميمة، ولا أحد يعرفه أيضًا. من العسير على الغجر الرحَّل عقد صداقات مع الناس العاديين، وقد كان غجريًّا بدرجة ما.

خطرت «ماريان» على باله. تركته منذ تسع سنوات، بعد زواج دام خمس سنين. إنه الآن في الثانية والخمسين من عمره؛ ما يعني أنها تحت الأربعين قليلًا. كانت لدى «ماريان» أحلام بأن تعمل في مجال الموسيقى، أن تصبح مغنية أغانٍ شَعبية. حفظت وأتقنت جميع أغنيات فرقة «الويفرز» وغنَّتها على أجمل نحو في بعض مقاهي سياتل. في الأيام الخوالي، كلما كان في المنزل أقلها بالسيارة إلى الحفلات وجلس بين الجمهور بينما تغني.

شكلت فترات غيابه الطويلة ـ لشهرين أو ثلاثة في بعض الأحيان ـ عبئًا ثقيلًا على الزواج. عرف ذلك، وكانت هي مدركة لطبيعة عمله عندما اتخذا قرار الزواج، وكان لدى كل منهما إحساس غامض بأنهما يستطيعان معالجة الأمر بطريقة ما. لكن ذلك لم ينجح. عندما رجع إلى البيت بعد تصوير قصة صحفية في آيسلندا، كانت قد ذهبت. تركت له رسالة قصيرة:

«روبرت»، لقد أخفق الأمر. تركت لك «جيتار الهارموني». ابقَ على اتصال.

لم يبقَ على اتصال، ولا هي فعلت. وقّع أوراق الطلاق عندما وصلته بعد عام وأخذ طائرة إلى أستراليا في اليوم التالي. لم تطلب شيئًا سوى حريتها.

في مدينة كاليسبيل، بولاية مونتانا، توقف في وقت متأخر ليبيت ليلته. بدا نُزل «ذا كوزي إن» غير مكلف، وهكذا كان. حمل معداته إلى داخل غرفة تحتوي على مصباحَي منضدة، أحدهما كانت لمبته تالفة. تمدد في الفراش، وأخذ يقرأ «تلال أفريقيا الخضراء» ويشرب بيرة، كان بوسعه أن يشم رائحة مطاحن الألياف الورقية في كاليسبيل. في الصباح مارس الركض لأربعين دقيقة، ونفذ خمسين تمرين ضغط، واستخدم كاميراتيه كوزنين صغيرين لليدين لينهي بذلك طقسه الصباحي.

قادَ سيارته عبر قمة مونتانا، إلى داخل نورث داكوتا والريف المستوي، قليل السكان، الذي كان منظره يخلب لُبه بنفس قدر الجبال أو البحر. كان ثمة نوع من الجمال المتقشف في هذا المكان، وقد توقف فيه مرات عديدة، وضبط حامل كاميرا، والتقط بعض الصور بالأسود والأبيض لمبانٍ قديمة في المزارع. يروق هذا المنظر الطبيعي له ويرضي ميوله للبساطة. كانت المحميات الهندية مثيرة للإحباط، لكل الأسباب التي يعلمها الجميع ويتجاهلونها. ومع ذلك، فلم تكن تلك الأنواع من المستوطنات بأفضل حالًا في شمال غرب واشنطن، أو في أي مكانٍ آخر سبق له أن رآها فيه.

في صباح الرابع عشر من أغسطس، وعلى مسافة ساعتين بعد أن خرج من دولوث، حوَّل اتجاهه صوب الشمال الشرقي وأخذ

طريقًا فرعيًّا زراعيًّا صاعدًا نحو هيبينغ ومناجم الحديد. طفا في الهواء غبار أحمر، وظهرت ماكينات ضخمة وقاطرات شحن صممت خصيصًا لتقطر المعدن الخام إلى الشاحنات في مدينة تو هاربورز على بحيرة «سوبيريور». قضى فترة الأصيل يتجول متأملًا في أرجاء مدينة هيبينغ، لكنها لم ترقه، حتى وإن كانت موطن نشأة «بوب زيمرمان-ديلان».

الأغنية الوحيدة من بين أغنيات «ديلان» التي اكترث لها ذات يوم حقًّا هي «بنت من شمال البلاد»، ويستطيع أن يعزفها ويغنيها، فأخذ يدندن بالكلمات لنفسه وهو يترك خلفه المكان ذا الأرض المنقورة بحفر حمراء هائلة. لقد علمته «ماريان» كيف يلعب على بعض الأوتار وكيف يُحسن المبادئ الأساسية للتوقيع السريع للنغمات حتى يصاحب غناءه بالموسيقى. قال ذات مرة لقبطان زوارق نهرية سكران في مكان يدعى «بار ماك إلروي»، في موضع ما من حوض الأمازون:

ـ ما تركته هي لي أكثر مما تركته لها.

وكان هذا حقيقيًّا.

كانت غابة «السوبريور ناشيونال» لطيفة، لطيفة حقًّا. بلاد تجارة الفراء. عندما كان صبيًّا صغيرًا، تمنى ألا تكون تلك الأيام الخوالي قد انقضت، أيام نقل الفراء بالقوارب وخبراء البراري المتمرسين بالمناطق المجهولة، بحيث يمكنه أن يصبح واحدًا من هؤلاء. قادَ عبر المروج، ورأى ثلاثة من حيوان الموظ، وثعلبًا أحمر، وكثيرًا من الأيائل. توقف عند إحدى البِرك الطبيعية

والتقط بعض الانعكاسات التي خلفها على سطح مياهها فرع شجرة غريب الشكل. عندما انتهى جلس على مرقاة باب شاحنته، يشرب القهوة ويدخن سيجارة «كاميل» ويستمع إلى صوت الريح بين شجر البتولا.

«سيكون أمرًا طيبًا أن أحظى برفقة شخص ما، امرأة ما»، هكذا حدَّث نفسه، مراقبًا دخان سيجارته يتطاير بعيدًا فوق البحيرة. «تلك هي الخواطر التي يوحي بها التقدُّم في السن». ولكن مع أسفاره الكثيرة لن يكون الأمر سهلًا على مَن يبقى في المنزل وحده. لقد تعلَّم ذلك الدرس من قبل.

في منزله في بيلينجهام، كان يخرج بين حين وآخر برفقة سيدة تعمل بالإخراج الفني في إحدى وكالات الإعلان في سياتل. التقى بها بينما كان موظفًا في شركة كبيرة. كانت في الثانية والأربعين من عمرها، ذكية، ودمثة، ولكنه لم يحبها، ولن يحبها أبدًا.

في بعض الأحيان، كان يشعر كلاهما بشيء من الوحدة، فيقضيان أمسية معًا، يشاهدان فيلمًا في السينما، أو يشربان بضع زجاجات بيرة، وبعد ذلك يمارسان حبًّا متحفظًا. كانت ذات تجارب سابقة ـ زيجتان، وعملت نادلة في حانات كثيرة بينما تدرس في الجامعة. بعد أن يفرغا من ممارسة الحب ويرقدا معًا، كان لا بد أن تقول له على الدوام: «أنت الأفضل، يا «روبرت»، لا منافس لك، ولا أحد يقترب حتى من منافستك».

افترض أن ذلك كان شيئًا طيبًا يروق لكل رجل أن يسمعه، لكنه لم يكن خبيرًا ومحنكًا لهذه الدرجة، ولا سبيل لديه لكي يعرف إن

كانت تخبره بالحقيقة أم لا على أي حال. غير أنها ذات مرة قالت له شيئًا استحوذ على عقله:

ـ تعرف يا «روبرت»، يوجد في داخلك كائن ما، لكني لست بارعة بما فيه الكفاية لكي أخرجه منك، لست قوية بما يكفي لأصل إليه. وأحيانًا أشعر بأنك كنت موجودًا هنا لأمد طويل، لأكثر من عمر واحد، وأنك سكنت في أماكن سرية خاصة لا يمكن لبقية الناس حتى أن يحلموا بها. إنك تخيفني، مع أنك تعاملني بلطف. وإن لم أكافح للسيطرة على نفسي معك، أشعر كأنني قد أفقد توازني ولن أستعيده بعد ذلك أبدًا.

أدرك بصورة غائمة ما كانت تتحدث عنه. لكن هو نفسه لم يستطع أن يضع يديه عليه. لطالما زارته تيَّارات الأفكار المنجرفة تلك، إحساس حزين بالمأساة ممزوج بقوة بدنية وفكرية حادة، حتى عندما كان صبيًّا صغيرًا يكبر في بلدة صغيرة بولاية أوهايو. بينما كان الأطفال الآخرون يغنون: «جدِّف، جدِّف، جدِّف في قاربك»، كان يتعلم لحن أغنية كباريهات فرنسية وكلماتها الإنجليزية.

أحب الكلمات والصور المتخيَّلة. كانت كلمة «أزرق» إحدى كلماته المفضلة. أحب الإحساس الذي تتركه على شفتيه ولسانه عندما ينطقها. للكلمات إحساس بدني، وليست مجرد معانٍ؛ تذكر تفكيره في هذا عندما كان صغيرًا. أحب كلمات أخرى، مثل: «نائي»، و«دخان الحطب»، و«طريق سريع»، و«عتيق»، و«ممر»، و«نقلة الفراء»، و«الهند» بسبب أصواتها، ومذاقها،

وما تستحضره في عقله. احتفظ بقوائم لكلمات أحبها، ولصقها في غرفته.

ثم دمج الكلمات في عبارات وعلق تلك أيضًا:

أقرب إلى النيران مما يجب.

أتيت من الشرق بصحبة زمرة صغيرة من الرحالة.

الطنين المتواصل لأولئك الذين قد ينقذوني وأولئك الذين قد يبيعوني.

يا طلسم، يا طلسم، أظهر لي أسرارك.

يا ملَّاح، يا ملَّاح، وجه دفتك إلى دياري.

أرقد عاريًا حيث تسبح الحيتان الزرقاء.

تمنت له قطارًا بخاريًّا ينطلق من محطات شتوية.

قبل أن أصبح إنسانًا، كنت سهمًا ـ قبل زمان طويل.

ثم كانت هناك أماكن أحب أسماءها: التيار الصومالي، سلسلة جبال «بيج هاتشيت»، مضيق «ملقا»، وقائمة طويلة بأماكن أخرى. وفي نهاية الأمر غطت جدران غرفته شرائط من ورق تصطف عليها الكلمات والعبارات والأماكن.

حتى أمه لاحظت شيئًا مختلفًا فيه. لم ينطق كلمة واحدة حتى بلغ الثالثة من عمره، وعندئذٍ شرع يتحدث بجمل تامة، وتمكن من القراءة على أفضل نحو على مشارف سنته الخامسة. في المدرسة كان تلميذًا غير مبالٍ، ومحبِطًا للمعلمين.

نظروا إلى درجاته في اختبارات قياس الذكاء وتحدثوا إليه عن الإنجاز، عن تحقيق ما يمكن له أن يحققه، وأن بوسعه أن يبلغ أي شأن يشاء. في بيان تقييم له كتب أحد معلميه في المرحلة الثانوية:

إنه يعتقد أن «اختبارات قياس الذكاء وسيلة رديئة للحكم على قدرات الناس، لأنها تخفق في تفسير عنصر السحر، الذي له أهميته، في حد ذاته وكمتمم للمنطق على السواء». أقترح عقد اجتماع مع والديه.

اجتمعت والدته بمعلمين عديدين. عندما تحدث المعلمون عن ميل «روبرت» الهادئ للسلوك العنيد في ضوء قدراته، قالت:

ـ يعيش «روبرت» في عالم من صنعه. أعرف أنه ابني، لكني أحيانًا ينتابني شعور بأنه لم يأتِ مني أنا وزوجي، بل من مكان آخر، وهو يحاول الرجوع إليه. إنني أقدر اهتمامكم به، وسأحاول أن أشجعه مرة أخرى لكي يحسن من نفسه في المدرسة.

لكنه كان مكتفيًا بأن يقرأ جميع كتب المغامرات والرحلات في المكتبة المحلية وعدا ذلك يبقى منطويًا على نفسه، يمضي أيامًا على شاطئ النهر الذي يجري عبر حواف البلدة، متجاهلًا الحفلات الراقصة للطلاب والطالبات ومباريات كرة القدم وأشياء

أخرى كانت تضجره. كان يصطاد السمك ويسبح ويتمشى ويرقد وسط العشب الطويل منصتًا إلى أصوات نائية تخيل أنه الوحيد الذي يستطيع أن يسمعها. كان يحدث نفسه قائلًا: «يوجد هناك سحرة، وليس عليك لتسمعهم إلا أن تكون هادئًا ومنفتحًا بالقدر الكافي، فهم موجودون». وكم تمنى لو كان لديه كلب ليشاركه تلك اللحظات.

لم تملك أسرته مالًا كافيًا ليدرس في الجامعة، لا مال ولا رغبة أيضًا. كدح والده في عمله، وكان طيبًا معه ومع والدته، غير أن عمله في مصنع للصنابير لم يترك الكثير للإنفاق على أمور أخرى، بما في ذلك رعاية كلب. كان في الثامنة عشرة عند وفاة أبيه، ومع فترة الكساد الاقتصادي الكبير التي رزحت بشدة فوق الجميع، تطوع للخدمة في الجيش كوسيلة لكي يعول نفسه ووالدته. قضى في الجيش أربعة أعوام، لكن تلك الأعوام الأربعة غيرت حياته.

بالطريقة الغامضة التي تعمل بها العقليات العسكرية، أُلحق بوظيفة مساعد مصور فوتوغرافي، مع أنه لم يكن يعرف أي شيء حتى عن تزويد كاميرا بفيلم. لكن في ذلك العمل اكتشف مهنته. كانت التفاصيل التقنية سهلة عليه، وفي غضون شهر كان ينجز أعمال التظهير في الغرفة المظلمة لأعمال اثنين من مصوري الفريق، ليس هذا وحسب، بل سُمح له بأن يلتقط بنفسه صورًا لبعض المهام البسيطة.

أُعجب به أحد المصورين، «جيم بيترسن»، وأمضى وقتًا إضافيًّا يشرح له دقائق التصوير الفوتوغرافي. استعار «روبرت

كينكيد» كتبًا عن الفوتوغرافيا وعن الفن من مكتبة بلدة فورت مونماوث، حيث القاعدة العسكرية، ودرسها. في تلك المرحلة المبكرة، استهواه على نحو خاص الانطباعيون الفرنسيون واستخدام «رامبرانت» للضوء.

في نهاية الأمر بدأ يرى أن الضوء هو ما يصوره، وليس الأشياء المادية. فما الأشياء المادية إلا الوسائل لانعكاس الضوء. وإذا كان الضوء جيدًا يستطيع المرء دائمًا أن يجد شيئًا ما ليصوره. كانت كاميرات الـ٣٥ ملِّيمترًا قد بدأت تظهر آنذاك، واشترى لنفسه من متجر محلي كاميرا مستعملة ماركة «لايكا». أخذها معه إلى كيب ماي، في نيو جيرسي، وأمضى هناك أسبوع إجازته العسكرية وهو يصور الحياة على طول الشاطئ.

وفي وقت آخر استقل حافلة حتى ولاية مين، ثم سافر على طول الشاطئ مستوقفًا السيارات على الطريق ملتمسًا فرصة ركوب، حتى لحق بقارب بريد الفجر عند جزيرة «أو هاوت» من ستونينجتن، ثم خيم، ثم استقل معدية عبر خليج «فندي» حتى نوفا سكوشا. شرع يدون ملاحظات حول أوضاع ضبط الكاميرا والأماكن التي أراد أن يزورها مرة أخرى. حينما خرج من الجيش في سن الثانية والعشرين، كان مصورًا لا بأس به بالمرة، ووجد عملًا في نيويورك مساعدًا لمصور أزياء معروف.

كانت عارضات الأزياء جميلات؛ وقد واعد بعضهن ووقع في هوى واحدة منهن على وجه الخصوص قبل أن تنتقل إلى باريس وتتفرق بهما السبل. كانت قد قالت له:

- «روبرت»، لست أعرف مَن تكون أو ماذا تكون بشكل مؤكد، لكن أرجوك تعالَ وزرني في باريس.

وأخبرها بأنه سوف يفعل، وكان صادقًا في قوله هذا، غير أنه لم يذهب إلى هناك قَطُّ. بعد مرور سنوات على ذلك، عندما كان يعمل على قصة صحفية على شواطئ النورماندي، عثر على اسمها في دليل هواتف باريس، هاتفها والتقيا وشربا القهوة في مقهى في مكان مفتوح. كانت متزوجة من مخرج سينمائي ولديها ثلاثة أطفال.

لم يستطع أن يتحمس كثيرًا لفكرة الأزياء، فإن الناس يتخلون عن ثياب جيدة لا عيب فيها أو يعيدون ضبطها سريعًا وفقًا لتعليمات أباطرة الموضة في أوروبا. رأى هذا غباء، وانحسرت رغبته في التصوير، وقد قال حينما ترك هذا العمل: «المرء هو ما يُنتجه».

توفيت أمه خلال عامه الثاني في نيويورك. عاد إلى أوهايو، ودفنها، وجلس أمام أحد المحامين، يُنصت إلى قراءة الوصية. لم يكن هناك الكثير، ولم يتوقع أن يكون هناك أي شيء على الإطلاق، لكنه فوجئ بأن يجد والديه قد راكما مبلغًا صغيرًا كقيمة عقارية على المنزل المنمنم في شارع «فرانكلين» حيث عاشا طوال حياتهما الزوجية. باع المنزل واشترى بالمال معدات تصوير له من الطراز الأول. بينما يدفع لبائع الكاميرات، فكر في السنين التي عملها أبوه من أجل تلك الدولارات، وفي الحياة البسيطة العادية التي عاشها والداه.

بدأ بعض من أعماله يظهر في مجلات صغيرة. ثم اتصلت به «الناشيونال جيوغرافيك». كانوا قد رأوا صورة في روزنامة التقطها في كيب ماي. تحدث معهم، وكلفوه بمهمة ثانوية فنفذها باحتراف، وهكذا وضعَ نفسه على الطريق.

استدعته القوات المسلحة للعودة إلى صفوفها عام ١٩٤٣. انضم إلى سلاح المارينز وأخذ يتعثر في طريقه صعودًا نحو الشواطئ الجنوبية للمحيط الهادئ، والكاميرات تتأرجح من كتفيه، ويرقد على ظهره، وهو يصور الرجال وهم ينزلون عن متن قوارب الإنزال البرمائية. رأى الذعر على وجوههم، وشعر به هو نفسه. رآهم مقطعين إلى جزأين بنيران المدافع الرشاشة، ورآهم يتوسلون إلى الله ويستنجدون بأمهاتهم. استوعب التجربة بكاملها، ونجا بنفسه، ولم يسقط أبدًا في فخ ما يُسمى بـ«مجد فوتوغرافيا الحرب ورومانسيتها».

عندما سُرِّح من الخدمة العسكرية عام ١٩٤٥، اتصل بمجلة «ناشيونال جيوغرافيك». وكانوا مستعدين له، في أي وقت. اشترى دراجة نارية في سان فرانسيسكو، وانطلق بها جنوبًا حتى «بيج سور»، حيث مارس الحب على أحد الشواطئ مع عازفة كمان من مدينة كارمل، ثم توجه شمالًا ليستكشف واشنطن، وقد راقه المكان فقرر الاستقرار هناك.

الآن، وهو في الثانية والخمسين، كان لا يزال يشاهد الضوء. زار أغلب الأماكن التي لصق أسماءها على جدران صباه، ولكم كان مندهشًا من وجوده هناك حقًّا عندما زارها، جالسًا في حانة

«رافلز»، يصعد مع تيار نهر الأمازون على متن قارب ذي طنين، ويتمايل فوق جمل عبر صحراء «راجستان».

كان شاطئ بحيرة «سوبريور» لطيفًا كما سمع. دوَّن أسماء بعض المواقع ليرجع إليها في المستقبل، وأخذ بعض اللقطات لإنعاش ذاكرته فيما بعد، واتجه جنوبًا على طول نهر الميسيسيبي نحو أيوا. لم يسبق له قَطُّ أن ذهب إلى أيوا، ولكنه كان مفتونًا بالتلال التي تقع في الجزء الشمالي الشرقي على امتداد النهر الكبير. توقف في بلدة كلايتون الصغيرة، وأقام في نُزل يملكه صياد سمك وقضى صبيحتين يلتقط صورًا لقوارب السحب، وأمضى أصيلًا فوق أحدها بدعوة من ملاح التقى به في حانة محلية.

في وقت مبكر من صباح الاثنين ١٦ أغسطس، عبر من فوق طريق «الولايات السريع ٦٥»، ومضى خلال دي موين، ثم انحرف غربًا باتجاه طريق «أيوا ٩٢»، وتوجه صوب مقاطعة ماديسون والجسور المغطاة التي يُفترض أن تكون هناك، وفقًا لمجلة «ناشيونال جيوغرافيك». كانت الجسور هناك بلا شك؛ هكذا قال له الرجل في محطة وقود «تكساكو» وأعطاه بعض الاتجاهات، مجرد اتجاهات تقريبية، للوصول إلى الجسور السبعة كلها.

كان من السهل العثور على أول ستة جسور حينما كان يضع خطط استراتيجياته لتصويرها. غير أن الجسر السابع راوغه، وكان مكانًا يُسمى «جسر روزمان». كان الجو ساخنًا، وكان هو ساخنًا، و«هاري» ـ كما يسمي شاحنته ـ كانت ساخنة، وأخذ

يجول في المكان نفسه على طرقات مرصوفة بالحصى، بدا كأنها لا تقود إلى أي مكان سوى طريق تالٍ يشبهها.

في البلاد الأجنبية، يتبع قاعدة مبنية على تجربته، وهي: «اسأل ثلاث مرات»، وقد اكتشف أن بوسع ثلاث إجابات مختلفة، حتى إن كانت جميعها خاطئة، أن توجهك تدريجيًّا إلى حيث تريد الذهاب. قد يكون كافيًا هنا أن يسأل مرتين فقط.

كان يقترب من صندوق بريد خاص بأحد المنازل، ينتصب عند طرف ممر يبلغ نحو مائة ياردة، وعليه اسم «ريتشارد جونسن، ر. ر. ٢». أبطأ الشاحنة، والتف داخلًا في ذلك الممر، بحثًا عن إرشاد ما.

عندما أوقف السيارة في باحة البيت، رأى امرأة تجلس على الشرفة الأمامية. بدا الجو هناك منعشًا، وكانت هي تشرب شيئًا بدا منعشًا أكثر. قامت من الشرفة ونزلت باتجاهه. نزل من الشاحنة ونظر إليها، ودقق النظر، ثم دقق النظر أكثر. كانت جميلة، أو كانت جميلة ذات يوم، أو قد تعود جميلة من جديد يومًا ما. وعلى الفور بدأ ينتابه ذلك الشعور القديم بالارتباك الذي طالما عانى منه بالقرب من النساء اللاتي يشعر نحوهن بانجذاب ولو طفيفًا.

«فرانشيسكا»

كان يوم ميلاد «فرانشيسكا» في قلب الخريف، والمطر البارد ينهمر على منزلها الخشبي في ريف جنوب أيوا. أخذت تشاهد المطر، وتنظر من خلاله نحو التلال على امتداد «النهر الأوسط»، وهي تفكر في «ريتشارد». لقد مات في يوم مثل هذا، منذ ثماني سنوات، بسبب داء تفضل ألا تذكر اسمه. لكن «فرانشيسكا» كانت تفكر فيه الآن، وفي طيبته الشديدة، وأساليبه الهادئة، والحياة المستقرة التي وفرها لها.

اتصل بها الولدان، لكن أحدًا منهما لم يتمكن من المجيء إلى البيت هذا العام أيضًا من أجل عيد ميلادها، مع أنه كان السابع والستين. تفهمت ظروفهما، كما فعلت دائمًا. دائمًا كانت تفعل، وسوف تفعل دائمًا. كلٌّ منهما في منتصف مسيرته المهنية،

يركض ويشقى، هو يدير مستشفى، وهي تعلِّم الأطفال، «مايكل» في طريقه إلى زيجته الثانية، و«كارولين» تكافح مع زواجها الأول. بينها وبين نفسها، كانت تشعر بسرور سري لأنهما لم يفلحا قَطُّ في ترتيب زيارتها في عيد ميلادها؛ فلديها طقوسها الخاصة لذلك اليوم.

زارها هذا الصباح أصدقاؤها من مدينة وِنترست القريبة ومعهم كعكة عيد ميلاد. أعدت «فرانشيسكا» القهوة، بينما أخذ الحديث ينتقل من الأحفاد إلى أحوال البلدة، إلى عيد الشكر وأي هدايا يشترون لفلان وعلان في عيد الميلاد. كان الضحك الهادئ وارتفاع وتيرة الحديث وانخفاضها في غرفة المعيشة أشياء مطمئنة بسبب ألفتها، ولأنها ذكرت «فرانشيسكا» بسبب صغير من أسباب بقائها هنا بعد وفاة «ريتشارد».

كان «مايكل» يزين لها العيش في فلوريدا، بينما تحاول «كارولين» إقناعها بنيو إنجلاند، لكنها بقيت بجانب التلال في جنوب أيوا، في أرضهم، واحتفظت بعنوانها القديم كما هو لسبب شديد الخصوصية، وكانت سعيدة لأنها فعلت.

تابعت «فرانشيسكا» أصدقاءها يغادرون مع اقتراب وقت الغداء، قادوا سياراتهم «البيويك» و«الفورد» على طول الممر المؤدي إلى منزلها، ثم استداروا نحو الطريق الزراعي المُعبَّد، متجهين إلى ونترست، بينما تدفع شفرات ماسحات الزجاج الأمامي قطرات المطر جانبًا. كانوا أصدقاء طيبين، مع أنهم لم يفهموا أبدًا ما تكتنزه في صدرها، ولن يفهموا حتى لو أطلعتهم عليه.

كان زوجها قد أخبرها أنها ستجد أصدقاء طيبين، عندما أحضرها من نابولي إلى هنا بعد الحرب، وقال لها:

ـ أهل أيوا فيهم عيوبهم، لكن ليس من ضمنها قلة الاكتراث بالآخرين.

كان ذلك حقيقيًّا ولم يزل.

كانت في الخامسة والعشرين عندما التقيا؛ متخرجة في الجامعة منذ ثلاث سنوات، وتدرِّس في مدرسة خاصة للفتيات، وتتساءل بشأن حياتها. كان أغلب الشبَّان الإيطاليين في ذلك الحين إما قتلى وإما جرحى وإما أسرى في معسكرات وإما حطمهم القتال. كانت علاقتها بـ«نيكولو» ـ أستاذ الفنون الجميلة في الجامعة، الذي كان يرسم طوال النهار وفي الليل يصحبها في جولات جامحة في العوالم السفلية لمدينة نابولي ـ قد انتهت قبل عام، منهارة في نهاية الأمر تحت وطأة المعارضة المتواصلة من والديها التقليديَّين.

كانت تضفر شعرها الأسود بشرائط، وتتشبث بأحلامها، غير أنه ما من بحَّار وسيم الملامح قد نزل من على متن سفينته باحثًا عنها، وما من صوت تناهى إلى نافذتها مناديًا من الشارع. قبضة الواقع الصلبة ألانت دماغها وجعلتها تعترف بأن الاختيارات أمامها محدودة. عرضَ عليها «ريتشارد» بديلًا معقولًا: الطيبة والوعد الحلو بأمريكا.

تأملته في زيه العسكري بينما جلسا في مقهى في ضوء شمس المتوسط، ورأته ينظر إليها بكل جدية على طريقة أهل وسط غرب أمريكا، ثم أتت معه إلى أيوا. أتت لتنجب طفليه، لتشاهد «مايكل» يلعب كرة القدم في ليالي أكتوبر الباردة، أو تأخذ «كارولين» إلى دي موين لشراء فساتين حفلات الرقص المدرسية. تبادلت الرسائل مع شقيقتها في نابولي عدة مرات في كل عام وعادت إلى هناك مرتين، عندما كان يُتوفَّى أحد والديها. غير أن مقاطعة ماديسون قد صارت الآن هي ديارها، ولم يساورها أي حنين للرجوع مرة أخرى.

توقف المطر في منتصف الأصيل، ثم واصل ما انقطع قبيل حلول المساء. في ضوء الغسق، صبَّت «فرانشيسكا» لنفسها كأسًا صغيرة من البراندي وفتحت الدرج الأدنى من مكتب «ريتشارد» ذي الغطاء القابل للرفع، وكان قطعة أثاث من خشب الجوز توارثتها ثلاثة أجيال من عائلته. أخرجت من الدرج ظرفًا أصفر كبيرًا ومسَّدت عليه بيدها في بطء، كما اعتادت أن تفعل في هذا اليوم من كل عام.

كان ختم البريد يحدد:

سياتل، وا، ١٢ سبتمبر ١٩٦٥

كانت دائمًا تنظر إلى ختم البريد أولًا. كان ذلك جزءًا من الطقس. ثم إلى العنوان المكتوب بخط يد متواصل الحروف:

«فرانشيسكا جونسن»

رر ٢، ونترست، أيوا

وبعد ذلك عنوان المرسِل، مخربشًا بإهمال بالأعلى جهة اليسار:

صندوق بريد ٦٤٢

بيلينجهام، واشنطن

جلست في مقعد إلى جانب النافذة، وتطلعت إلى العنوانين، بتركيز، لأن فيهما حركة يديه، وقد أرادت أن تستعيد الشعور بهاتين اليدين على جسدها قبل اثنين وعشرين عامًا.

وعندما استطاعت أن تشعر بيديه تلمسانها، فتحت الظرف، وبعناية بالغة أخرجت منه ثلاث رسائل، ومخطوطًا قصيرًا، وصورتين فوتوغرافيتين، وعددًا كاملًا من مجلة «ناشيونال جيوغرافيك» إلى جانب قصاصات من أعداد أخرى للمجلة. وعندئذٍ، في الضوء الرمادي الآخذ في الانحسار، ارتشفت البراندي قليلًا قليلًا، ونظرت من فوق حافة نظارتها إلى ملاحظة مكتوبة بخط اليد ومشبوكة بصفحات المخطوط المرقوم بالآلة الكاتبة. كانت الرسالة مكتوبة على أوراق مسجل عليها بياناته، بيانات بسيطة لا تزيد عن «روبرت كينكيد، كاتب ومصور فوتوغرافي» على رأس الصفحة بخط طباعة رصين.

١٠ سبتمبر ١٩٦٥

العزيزة «فرانشيسكا»،

في هذا الظرف صورتان، إحداهما التي التقطتها لكِ في المرعى عند شروق الشمس. أتمنى أن تعجبكِ بقدر ما تعجبني. الصورة الأخرى لجسر «روزمان» قبل أن أنزع عنه رسالتك المثبتة عليه.

أجلس هنا وأجول وسط المناطق الرمادية في عقلي ملاحقًا كل جزئية، كل لحظة من وقتنا معًا. أسأل نفسي مرارًا وتكرارًا «ما هذا الذي حدث لي في مقاطعة ماديسون، بولاية أيوا؟» وأجاهد لأستجمع الحكاية، وذلك هو السبب الذي جعلني أكتب القطعة الصغيرة المرفقة هنا بعنوان «السقوط من البُعد «ي»»، كطريقة لكي أتجاوز ارتباكي.

أنظر في أسطوانة العدسات الخاصة بالكاميرا فلا أرى في طرفها سواكِ. أشرع في العمل على موضوع جديد فلا أكتب إلا عنكِ. إنني حتى لست متأكدًا كيف رجعت إلى هنا من أيوا. كأن شاحنتي القديمة قد عرفت بطريقة ما طريقها إلى البيت، ومع ذلك فأكاد لا أذكر الأميال وهي تمر.

قبل أسابيع معدودة، كنت أشعر بأنني مكتفٍ بنفسي، كنت راضيًا بدرجة معقولة. ربما لم أكن سعيدًا سعادة عميقة، وربما كنت وحيدًا إلى حد ما، لكني كنت راضيًا على الأقل. كل ذلك قد تغير.

أصبح من الواضح عندي الآن أنني كنت أتحرك نحوكِ وأنكِ كنتِ تتحركين نحوي منذ أمد بعيد. مع أن أحدنا لم يدرك وجود الآخر قبل أن يلتقي به، لكن تحت سطح جهلنا ذلك كان هناك نوع من يقين طائش لا يكف عن الترنم نشوان مرحًا، وقد ضمن لنا

اجتماعنا معًا ذات يوم. مثل طائرين وحيدين يطيران في السهوب الشاسعة، بتقدير سماوي، طوال كل تلك السنين والأعمار كان كلٌّ منا يتحرك نحو الآخر.

الطريق مكان غريب. كنت أنتقل بالسيارة على غير هدى، ثم تطلعت فرأيتكِ هناك تسيرين عبر العشب نحو شاحنتي ذات نهار من أغسطس. عندما أتأمل ما حدث بأثر رجعي، يبدو كأنه كان محتومًا ـ لم يكن ممكنًا أن يحدث على أي نحو آخر ـ نموذجًا لما أسميه «الترجيح العالي لأمر مستبعد تمامًا».

وهكذا هأنذا أسير هنا وهناك وفي داخلي شخص آخر. مع أنني أعتقد أنني عبَّرت عن هذه الفكرة بشكل أفضل يوم افتراقنا حينما قلت لكِ إن هناك شخصًا ثالثًا خلقناه منا نحن الاثنين، والآن فإن ذلك الكيان الآخر يلاحقني.

لا بد أن يرى أحدنا الآخر مجددًا، بطريقة أو بأخرى. في أي مكان، في أي وقت.

اتصلي بي إن احتجتِ أي شيء في أي وقت أو إن أردتِ رؤيتي وحسب. سوف تجدينني أمامكِ في الحال. وأبلغيني إن كان باستطاعتكِ المجيء إلى هنا في وقت ما ـ في أي وقت. يمكنني أن أشتري لكِ تذكرة الطائرة، إن كانت تلك مشكلة. سوف أسافر إلى جنوب شرق الهند الأسبوع القادم، ولكني سأعود في أواخر أكتوبر.

أحبكِ،

«روبرت»

ملحوظة: نتيجة مشروع التصوير في مقاطعة ماديسون كانت جيدة. ابحثي عنها في مجلة «ناشيونال جيوغرافيك» في العام القادم، أو أبلغيني لو تريدين أن أرسل لكِ نسخة من العدد عند صدوره.

وضعت «فرانشيسكا جونسن» كأس البراندي على الحافة العريضة من خشب البلوط للنافذة وأخذت تحدق في صورتها الأبيض في أسود بحجم ثمانية في عشرة سنتيمترات. أحيانًا يصعب عليها أن تتذكر كيف كانت تبدو آنذاك، منذ اثنتين وعشرين سنة. كانت ترتدي سروال جينز ضيقًا، حائل اللون، وفي قدميها صندل، وتيشيرت أبيض، وشعرها يتطاير في هواء الصبح، وهي تستند على عارضة سياج.

من موضعها بجانب النافذة، كان يمكنها أن ترى، خلال المطر، الموضع نفسه للسياج القديم الذي لم يزل يحيط بالمرعى. عندما أجرت الأرض، بعد وفاة «ريتشارد»، اشترطت أن يبقى المرعى كما هو، ألا يُمس، حتى وإن كان خاليًا الآن وقد تحول إلى مرج مُعشِب.

الخطوط الحرجة الأولى كانت قد شرعت لتوها في الظهور على وجهها في الصورة. استطاعت الكاميرا الخاصة به أن تعثر عليها، ومع ذلك، فقد سرَّها ما رأته. كان شعرها أسود، وجسدها ممتلئًا ودافئًا، يملأ سروال الجينز بقَدرٍ يكاد يكون مضبوطًا تمامًا.

لكنه وجهها ذلك الذي تحدق الآن فيه، كان وجه امرأة غارقة في حب الرجل الذي يلتقط لها الصورة.

يمكنها أن تراه بكل وضوح أيضًا، في مجرى تيار ذكرياتها. في كل عام تمرر في عقلها صور ما حدث، تفعل ذلك بدقة، فتتذكر كل شيء، ولا تنسى أي شيء، تدمغ كل ما كان، إلى الأبد، كما يفعل شيوخ القبائل عندما ينقلون تاريخهم الشفاهي من جيل إلى جيل. كان طويلًا ونحيلًا وصلبًا، وكان يتحرك كأنه العشب نفسه، بلا أدنى جهد، في رشاقة. ينسدل شعره الرمادي-الفضي إلى ما دون أذنيه ويبدو مشعثًا طيلة الوقت تقريبًا، كما لو عاد لتوه من رحلة بحرية طويلة خلال ريح قاسية، وقد حاول أن يمشط شعره ويعيده إلى مكانه بيديه.

وجهه النحيل، وعظام وجنتيه البارزتين، وشعره المتساقط على جبينه في انسجام جميل مع لون عينيه الأزرق الفاتح، عيناه اللتان يبدو أنهما في بحث لا ينقطع عن الصورة الفوتوغرافية التالية. ابتسم لها، وهو يقول كم كانت تبدو رائعة ودافئة في نور أول الصبح، وطلب منها أن تستند على حاجز السياج، ثم تحرك حولها في قوس واسع، وهو يلتقط الصور من مستوى الركبة، ثم معتدلًا في وقفته، ثم راقدًا على ظهره والكاميرا موجهة نحوها.

انتابها حرج طفيف من كمية الفيلم التي استخدمها من أجلها ولكنها أيضًا سعدت بمقدار الانتباه الذي منحها إياه. وتمنت ألا يخرج أحد من الجيران مبكرًا بجراراتهم. مع أنها، في ذلك الصباح بالذات، لم تكترث كثيرًا للجيران ولما يفكرون.

أخذ يلتقط الصور، ويزود الكاميرا بفيلم آخر، ويغير العدسات، ويغير الكاميرات، ثم يلتقط المزيد، ويتحدث بصوت خفيض إليها بينما يواصل عمله، ولا يكف عن إخبارها كم كانت تبدو له جميلة وكم كان يحبها. ««فرانشيسكا»، أنتِ حلوة بدرجة غير معقولة». أحيانًا كان يتوقف تمامًا ويكتفي بالنظر إليها، بالنظر عبرها، ومن حولها، وفي داخلها.

برزت حلمتا نهديها بخطوط واضحة حيث ضغطتا على التيشيرت القطني. لم تُبدِ اهتمامًا بذلك، بخلاف ما اعتادت؛ لم تهتم بكونها عارية تمامًا تحت القميص القطني، بل الأكثر أنها كانت مسرورة به، وأثارتها معرفتُها أنه يمكنه رؤية نهديها بهذا القدر من الوضوح عبر عدساته. ما كانت قطُّ لتظهر بهذا المظهر أمام «ريتشارد»؛ ما كان ليتقبله. والحقيقة أنها، قبل أن تلتقي بـ«روبرت كينكيد»، ما كانت لتظهر بهذا المظهر في أي وقت على الإطلاق.

طلب منها «روبرت» أن تقوس ظهرها بدرجة طفيفة للغاية، وهمس عندئذٍ:

ـ نعم، نعم، هكذا، اثبتي هكذا.

كان ذلك في اللحظة التي التقط فيها الصورة التي تنعم النظر فيها الآن. كان الضوء مثاليًّا، ذلك ما قاله ـ «مشرق وغائم معًا» كما أسماه ـ وأخذ حاجب العدسة يطقطق بوتيرة ثابتة بينما هو يتحرك من حولها.

كان مرنًا؛ كانت تلك هي الكلمة التي خطرت لها بينما تشاهده. كان في الثانية والخمسين وكل جسمه عضلات نحيلة، عضلات تتحرك بنوع من الحميَّة والعنفوان، شيء لا يتوفر إلا في الرجال الذين يكدحون في عملهم ويهتمون بأنفسهم. أخبرها بأنه كان مصور معارك حربية في المحيط الهادئ، واستطاعت «فرانشيسكا» أن تتخيله يصل مع قوات المارينز إلى شواطئ متلفعة بالدخان، وآلات تصويره ترتطم بجسده، وإحداها مثبتة أمام عينه، وحاجب العدسة يكاد يشتعل من فرط سرعة التقاطه للصور.

نظرت نحو الصورة مجددًا، وتأملتها مليًّا. فكرت، وهي تبتسم لنفسها: «كم كنت أبدو جميلة حقًّا»، وقد خامرها شيء هين من الإعجاب بالنفس. «لم أبدُ قطُّ بهذا الجمال لا قبل ذلك ولا بعده. كان هو السبب». وأخذت رشفة أخرى من البراندي بينما تكاد ترتفع الأمطار عاليًا، محمولة فوق ظهر ريح نوفمبر.

كان «روبرت كينكيد» ساحرًا من نوع ما، عاش مكتفيًا بذاته في أماكن غريبة، بل تكاد تكون مهدِّدة. ذلك ما أحست به «فرانشيسكا» على الفور ذات يوم اثنين حار وجاف من أغسطس عام ١٩٦٥، عندما نزل من شاحنته إلى الممر المؤدي إلى منزلها. كان «ريتشارد» والولدان في معرض ولاية إلينوي، لكي يتقدموا بعِجلهم إلى جائزة استعراض الثيران الصغيرة، ذلك العِجل الذي حظي باهتمام يفوق ما كانت تناله هي منهم. وكان لديها أسبوع بمفردها.

كانت تجلس على أرجوحة الشرفة الأمامية، تشرب شايًا مثلجًا، إذ رأت عرضًا غبار الطريق يتصاعد ملتويًا من تحت شاحنة تتقدم على الطريق الزراعي. كانت الشاحنة تتحرك ببطء، كما لو كان السائق يبحث عن شيءٍ ما، وتوقفت غير بعيدٍ من الممر المؤدي إلى منزلها، ثم استدارت صوب المنزل. قالت لنفسها: «آخ، يا رب، ومن يكون هذا؟».

كانت حافية، ترتدي سروال جينز وقميص عمل بهت لونه الأزرق وقد شمَّرت كميه، وتركت ذيله ينسدل خارج السروال. كان شعرها الأسود الطويل ملمومًا بمشبك شعر مصنوع من عظم ظهر سلحفاة، أهداها والدها هذا المشبك عندما غادرت البلد القديم. قطعت الشاحنة الممر المؤدي إليها وتوقفت قرب البوابة عند سياج السلك المحيط بالمنزل.

نزلت «فرانشيسكا» عن الشرفة الأمامية وسارت غير مسرعة خلال مرج العشب نحو البوابة. ومن داخل الشاحنة نصف النقل ظهر «روبرت كينكيد»، وهو يبدو كأنه رؤيا ما تجسدت من كتاب لم يُكتب قَطُّ عنوانه: «التاريخ المصوَّر للشامان».

كان قميصه الحنطي بطرازه العسكري ملتصقًا بظهره بسبب العرق؛ وارتسمت تحت إبطيه أيضًا دوائر واسعة داكنة بفعل العرق. الأزرار الثلاثة العليا كانت مفتوحة، وكان بوسعها أن ترى عضلات صدره المتماسكة مباشرة تحت سلسلة فضية بسيطة حول رقبته. وفوق كتفيه كان الصديري البرتقالي الواسع، من النوع الذي يرتديه مَن يقضون وقتًا كبيرًا في المناطق البريَّة.

ابتسم.

ـ آسف على إزعاجك، لكني أبحث عن جسر مغطى على هذا الطريق، ولا يمكنني أن أجده. أعتقد أنني تائه حاليًّا.

مسح جبينه بمنديل رأس أزرق وابتسم من جديد.

نظرت عيناه إليها مباشرة، وشعرت بشيء يثب في جوفها. العينان، الصوت، الوجه، الشعر الفضي، الطريقة السهلة التي يحرك بها جسمه، طرق قديمة، طرق تشتت التفكير، طرق تجذبك. طرق تهمس لك في اللحظة الأخيرة قُبيل أن يغلبك النوم، عندما تسقط الحواجز. طرق تُعيد تنظيم الفضاء الجزيئي ما بين الذكر والأنثى، بصرف النظر عن النوع الذي ينتميان إليه.

لا بد أن تتعاقب الأجيال، ولا تهمس الطرق إلا بهذا المطلب الوحيد، هذا ولا شيء أكثر. القوة بلا حدود والشكل في غاية الأناقة. تعرف الطرق وجهتها، ولا تحيد عنها؛ وغايتها واضحة. الطرق بسيطة؛ لكننا جعلناها تبدو معقدة. أحست «فرانشيسكا» بهذا بدون أن تعرف أنها كانت تحس به، أحست بهذا على مستوى خلاياها. وعندئذٍ بدأ الأمر الذي سوف يغيرها إلى الأبد.

مرت سيارة على الطريق، بذيل من الغبار في أعقابها، وأطلقت نفيرها. لوحت «فرانشيسكا» ردًّا على تحية «فلويد كلارك» بذراعه البنية التي برزت من سيارته «الشفروليه» ثم التفتت من جديد إلى الغريب.

ـ أنت قريب للغاية، فالجسر على مسافة ميلين فقط من هنا.

وفي هذه اللحظة، وبعد عشرين عامًا من عيش حياة متحفظة، حياة السلوك المقيَّد والمشاعر المخفية وسائر ما تستوجبه ثقافة ريفية، ها هي «فرانشيسكا جونسن» تدهش نفسها إذ تقول له:

ـ سوف يسرني أن آتي وأريك إياه، إذا أردت.

لماذا فعلت ذلك؟ لم تملك قَطُّ جوابًا أكيدًا. ربما، وبعد كل تلك السنوات، ارتفعت في داخلها مشاعر صبية صغيرة، مثل فقاعة اندفعت خارجة عبر الماء. لم تكن خجولًا، لكنها لم تكن جريئة أيضًا. كان الشيء الوحيد الذي يمكنها أن تستنتجه أن «روبرت كينكيد» قد جذبها بطريقة ما، بعد بضع ثوانٍ فقط من النظر إليه.

كان واضحًا أن عرضها هذا قد فاجأه قليلًا. لكنه سرعان ما تجاوز المفاجأة، وبتعبير جاد على وجهه قال إنه يُقدر لها ذلك. التقطت من الدرج الخلفي الحذاء طويل الرقبة الخاص برعاة البقر والذي تستخدمه في مهام المزرعة ثم سارت نحو شاحنته، تتبعه في التفافه نحو الجانب المجاور لمقعد السائق.

ـ اسمحي لي بدقيقة واحدة، لأفرغ مكانًا لكِ؛ يوجد كثير من المعدات والأشياء هنا.

هكذا أخذ يغمغم لنفسه بينما يعمل، وكان بوسعها أن ترى أنه مرتبك قليلًا، وخجلان قليلًا بشأن المسألة بكاملها.

كان يعيد ترتيب حقائب قماشية وحوامل كاميرات، وتُرمس وأكياس ورقية، في صندوق الشاحنة حيث كانت هناك حقيبة حنطية من نوع سامسونايت وجراب آلة الجيتار، كلاهما مُغبَّر ومهلهل، وكلاهما مربوط إلى إطار سيارة احتياطي بقطعة من حبل الغسيل.

تأرجح باب الشاحنة فانغلق تلقائيًّا، وارتطم بمؤخرته وهو لا يزال يهمهم بكلام غير مفهوم، ويفرز الأشياء المتناثرة، ويدس أكوابًا ورقية للقهوة وقشر موز في كيس بقالة بني رمى به إلى صندوق الشاحنة عندما انتهى. وأخيرًا حرَّك مبرِّدًا أزرق وأبيض ووضعه في الخلف أيضًا. على باب الشاحنة الأخضر كُتب بطلاءٍ بهت لونه الأحمر:

كينكيد فوتوغرافيا، بيلينجهام، واشنطن

ـ حسنٌ، أظن أنكِ تستطيعين أن تجدي لكِ مكانًا الآن.

أمسك الباب، وأغلقه من خلفها، ثم دار حول الشاحنة حتى مقعد السائق، وبرشاقة غريبة، شبه حيوانية، جلس وراء عجلة القيادة. نظر إليها، نظرة سريعة فقط، وابتسم ابتسامة خفيفة، وقال:

ـ أي طريق؟

أشارت بيدها:

ـ يمين.

أدار المفتاح، فصدر صوت نشاز من المحرك وهو يبدأ الدوران. على طول الممر المؤدي إلى الطريق، كانت السيارة ترتج قليلًا، وساقاه الطويلتان تعملان تلقائيًّا على الدوَّاسات، كان يرتدي سروال جينز «ليفايس» قديمًا يمتد حتى حذاء حقول طويل الرقبة فيه أربطة جلدية كان قد قطع معه أميالًا عديدة من السير.

مال إلى الأمام ومد يده داخل تابلوه السيارة، مس ساعده من غير قصد أدنى فخذها مسًّا خفيفًا. كان نصف نظره مصوبًا نحو زجاج الشاحنة الأمامي والنصف الآخر في التابلوه، تناول بطاقة تقديم وناولها إياها:

روبرت كينكيد، كاتب-مصوِّر

كان عنوانه مطبوعًا عليها، إلى جانب رقم هاتفه.

قال:

ـ أتيت إلى هنا في مهمة كلفتني بها «الناشيونال جيوغرافيك». أنتِ تعرفين هذه المجلة؟

أومأت «فرانشيسكا»:

ـ نعم.

وهي تقول في نفسها: «ومَن الذي لا يعرفها؟».

ـ إنهم يعملون على موضوع حول الجسور المغطاة، ومن الواضح أن مقاطعة ماديسون، في ولاية أيوا، لديها بعض الجسور المثيرة للاهتمام. لقد حددت مواقع ستة منها، ولكني أخمن أنه لا يزال هناك واحد آخر على الأقل، ومن المفترض أن يكون هناك في هذا الاتجاه.

قالت «فرانشيسكا» بصوت يغالب ضجيج الريح والإطارات والمحرك:

ـ إنه يُسمى «جسر روزمان».

بدا لها صوتها غريبًا، كما لو كان ينتمي لشخص آخر سواها، إلى صبية مراهقة تميل ناظرة من شباك بيتها في نابولي، متطلعة نحو البعيد بامتداد شوارع المدينة نحو محطة القطارات أو صوب الميناء وشاردة مع عشاق بعيدين سوف يأتون ذات يوم. بينما كانت تتكلم، راقبت العضلات تشتد في ساعده وهو يغير السرعات.

إلى جانبها حقيبتا ظهر صغيرتان، إحداهما طيتها مسدلة، أما الأخرى فمثنية إلى الوراء، وأمكنها أن ترى آلة تصوير تبرز من داخلها، بجزئها العلوي فضي اللون وظهرها الأسود. وطرف علبة فيلم من طراز «كوداكروم II، ٢٥. ٣٦ صورة» مثبت على ظهر الكاميرا. كان هناك صِدار حنطي اللون له جيوب كثيرة محشور وراء الحقائب، ويتدلى من أحد جيوبه سلك رفيع بمكبس في طرفه.

وراء قدميها اثنان من حوامل الكاميرا ثلاثية القوائم، كانا في حالة سيئة من كثرة الخدوش، لكنها استطاعت أن تقرأ العلامة المهترئة على أحدهما: «جيتزو». عندما فتح تابلوه السيارة، لاحظت أنه كان مكتظًّا بدفاتر صغيرة، وخرائط، وأقلام، وعلب أفلام فارغة، وعملات معدنية مختلطة، وكرتونة سجائر «كاميل».

قالت له:

ـ استدر مع المنعطف التالي.

منحها هذا عذرًا لكي تخطف نظرة لجانب وجه «روبرت كينكيد». كانت بشرته ملوَّحة وناعمة ولامعة بالعرق. كانت له شفتان لطيفتان؛ ولسبب ما لاحظت ذلك على الفور. وكان أنفه يشبه ذلك الذي رأته على وجه رجل من الهنود الأمريكيين في إجازة ذهبت فيها الأسرة نحو الغرب عندما كان الولدان صغيرين.

لم يكن وسيمًا بأي معنى متعارف عليه. ولم يكن منفرًا كذلك. فلم يبدُ أن تلك الكلمات تنطبق عليه. لكن كان هناك شيء ما، شيء ما فيه، شيء عتيق، شيء عركته السنوات، ليس في مظهره، إنما في عينيه.

في رسغه الأيسر ساعة يد لها مظهر معقد، وحزام جلدي بني مبقع بالعرق. وتعلق برسغه الأيمن سوار فضي بزخارف ملولبة متداخلة. فكرت أن ذلك السوار يحتاج إلى تدليك جيد بسائل تلميع

الفضة، ثم وبخت نفسها لكونها حبيسة توافه الأمور المرافقة للحياة في بلدة صغيرة، والتي تمردت عليها في صمت على مدى السنوات.

سحب «روبرت كينكيد» علبة سجائر من جيب قميصه، وأخرج واحدة حتى منتصفها وعرضها عليها. للمرة الثانية خلال خمس دقائق فقط، تدهش نفسها وتأخذ السيجارة. تساءلت في نفسها: «ما هذا الذي أفعل؟». كانت تدخن قبل سنوات لكنها أقلعت تحت القرع المتواصل لاستنكار «ريتشارد». أخرج سيجارة أخرى ووضعها بين شفتيه، ونقر قدَّاحة ذهبية من طراز «زيبو» فاشتعلت، وأمسكها وهو يوجهها نحوها بينما عيناه ما زالتا على الطريق.

كوَّرت يديها حول القدَّاحة لتحجبها عن الريح ولمست يده لتثبيتها إزاء حركة الشاحنة المترجرجة. لم يستغرق منها إشعال السيجارة سوى لحظة واحدة، لكنها كانت طويلة بما يكفي لأن تحس بدفء يده والشعر الدقيق على ظاهرها. رجعت بظهرها وأرجع هو القداحة نحو سيجارته، وقد شكَّل بيده الأخرى حاجز الريح بخبرة، من دون أن يرفع يديه عن عجلة القيادة لأطول من ثانية واحدة.

استراحت «فرانشيسكا جونسن»، زوجة المزارِع، على مقعد الشاحنة المغبَّر، وأخذت تدخن سيجارتها، ثم أشارت:

ـ ها هو هناك، بعد المنحنى مباشرة.

كان الجسر القديم يمتد فوق نُهير صغير، بطلاء أحمر متقشِّر، وهو مائل بدرجة طفيفة بفعل كل تلك السنين.

ابتسم «روبرت كينكيد» عندئذٍ. نظر إليها بسرعة وقال:

ـ عظيم. لقطة عند شروق الشمس.

توقف على مسافة مائة قدم من الجسر ونزل عن الشاحنة، وأخذ معه الحقيبة القماشية المفتوحة.

ـ سوف أجري عملية استطلاع صغيرة لبضع دقائق، هل تمانعين؟

حركت رأسها على الجانبين وابتسمت ردًّا على ابتسامته.

راحت «فرانشيسكا» تراقبه بينما يسير على الطريق الزراعي، ويتناول آلة تصوير من الحقيبة ثم يعلقها بحركة سريعة فوق كتفه اليسرى. لقد فعل ذلك آلاف المرات، الحركة ذاتها تمامًا. أمكنها أن تخمن هذا من قدر مرونة الحركة. بينما يسير، لم يتوقف رأسه قَطُّ عن التحرك، والتطلع من جانب إلى جانب، ثم إلى الجسر، ثم إلى الأشجار وراء الجسر. ذات مرة استدار ونظر إلى الوراء نحوها، بتعبير جاد على وجهه.

على النقيض من أهل هذه المقاطعة، ممن يتغذون بمرق اللحم والبطاطس واللحوم الحمراء، ثلاث مرات يوميًّا بالنسبة إلى بعضهم، بدا «روبرت كينكيد» كما لو كان لا يأكل شيئًا غير الفاكهة والمكسرات والخضار. صلب، هكذا فكرت. إنه يبدو

صلبًا، من الناحية الجسدية. لاحظت كم كانت مؤخرته صغيرة في سرواله الجينز ـ كان بوسعها أن ترى الخطوط الخارجية لمحفظة نقوده في الجيب الأيسر ولمنديل الرأس في الجيب الأيمن ـ وكيف بدا أنه يتحرك فوق الأرض قليلًا، من دون أن يهدر حركة واحدة بددًا.

كان المكان هادئًا. حطَّ شحرور بجناحين أحمرين على سلك سياج وتطلع ناحيتها. صاحت قُبرة مروج من بين الأعشاب التي على جانب الطريق. لم يتحرك أي شيء آخر تحت شمس أغسطس البيضاء.

توقف «روبرت كينكيد» غير بعيد عن الجسر. لبث هناك للحظة، ثم قرفص أرضًا، وتطلع عبر الكاميرا. سار نحو الجانب الآخر من الطريق وفعل الشيء نفسه. ثم تحرك إلى ما تحت غطاء الجسر وأخذ يتأمل العوارض وألواح الأرضية، وينظر نحو النُّهير بالأسفل عبر فجوة جانبية.

أطفأت «فرانشيسكا» سيجارتها في منفضة السجائر، وفتحت باب الشاحنة، ووضعت حذاءها طويل الرقبة على الحصى. تطلعت سريعًا من حولها حتى تتأكد من عدم اقتراب أي سيارة من سيارات جيرانها، ومشت نحو الجسر. كانت الشمس تقرع مثل مطرقة في آخر الأصيل، وبدا الجو ألطف في داخل الجسر. كان بوسعها أن ترى صورة ظِلية له على الجانب الآخر من الجسر حتى اختفى تحت القوس باتجاه النُّهير.

بداخل الجسر، سمعت هديلًا عذبًا لحمَامات اتخذت أعشاشها تحت الأفاريز الخشبية، ووضعت راحة يدها على الألواح الجانبية، ملتمسة دفء الخشب. كانت هناك جرافيتي على بعض الألواح: «جيمبو-دينيسون، أيوا». «شيري + دوبي». «هيا يا فريق الهوكس!» وكان الحمَام يواصل هديله بعذوبة.

اختلست «فرانشيسكا» نظرة عبر شق بين لوحين جانبيين، إلى أسفل باتجاه النُّهير حيث كان «روبرت كينكيد» قد ذهب. كان واقفًا على صخرة وسط مياه النُّهير، ينظر نحو الجسر، وقد جفلت وتراجعت إذ رأته يلوح لها. قفز عائدًا للضفة وتحرك بسهولة صاعدًا المنحدر الحاد. ظلت تراقب المياه إلى أن أحست بحذائه على أرضية الجسر.

قال لها، وقد اكتسى صوته رنينًا بداخل الجسر المغطى:

ـ لطيف جدًّا، المكان هنا لطيف فعلًا.

أومأت «فرانشيسكا»:

ـ نعم، هو كذلك. إننا هنا نتعامل مع تلك الجسور العتيقة على أنها شيء عادي ولا نفكر فيها كثيرًا.

سار حتى بلغها ومد يده بباقة صغيرة من أزهار الرُّدبيكية البرية. ابتسم ابتسامة ناعمة:

ـ شكرًا على الجولة الإرشادية. سوف أعود في فجر يوم قريب وآخذ لقطاتي.

شعرت بشيء ما في داخلها من جديد. الأزهار. لم يقدم لها أي شخص أزهارًا، حتى في المناسبات المهمة.

قال:

ـ أنا لا أعرف اسمكِ.

أدركت عندئذٍ أنها لم تخبره به وشعرت بأنها حمقاء بسبب ذلك. وعندما أخبرته باسمها أومأ وقال:

ـ لمحت أثر لكنة بعيدة في كلامكِ. إيطالية؟

ـ صحيح. لكن قبل زمن طويل.

في الشاحنة الخضراء مرة أخرى، على طول الطريق المرصوف بالحصى، بينما الشمس تنخفض. قابلا سيارات مرتين، ولكن لم يكن فيها أي شخص تعرفه «فرانشيسكا». خلال الدقائق الأربع التي استغرقاها للوصول إلى المزرعة، شردت بعيدًا، وقد شعرت بأنها غريبة ومفككة الأوصال. مزيدًا من «روبرت كينكيد»، الكاتب-المصوِّر، ذلك ما أرادته. أرادت أن تعرف المزيد، وتشبثت بالأزهار فوق ساقيها، واحتفظت بها في وضع مستقيم، مثل تلميذة عائدة من موعد عاطفي.

كان وجهها يتضرج بالدم، استطاعت الإحساس بهذا، لم تكن قد فعلت أي شيء أو قالت أي شيء، ومع ذلك فقد شعرت كما لو أنها فعلت وقالت. انبعثت من راديو الشاحنة ـ غير المسموع

تقريبًا وسط هدير الطريق والريح ـ أغنية من طراز «الكانتري» الريفي الأمريكي، تبعتها نشرة أخبار الخامسة.

وجَّه الشاحنة نحو الممر المؤدي إلى المنزل. قال:

ـ «ريتشارد» هو زوجكِ؟

كان قد رأى صندوق البريد.

قالت «فرانشيسكا»، بدرجة هينة من تقطع الأنفاس:

ـ نعم.

ما إن شرعت في الحديث لم تعد قادرة على التوقف.

ـ الجو حار جدًّا. هل تود أن تشرب شايًا مثلجًا؟

نظر إليها متمعنًا.

ـ أود بالتأكيد، إن لم يكن فيه إزعاجكِ.

فقالت:

ـ لا إزعاج بالمرة.

طلبت منه أن يوقف الشاحنة وراء المنزل، وتمنت أن تكون نبرتها بدت عادية. ما كانت في غنى عنه أن يصل «ريتشارد»

إلى المنزل فيأتيه أحد رجال الجيران ليقول: «مرحبًا، يا «ديك»، أكان لديكم بعض الأعمال في المنزل؟ رأيت شاحنة خضراء هناك الأسبوع الماضي. كنت أعرف أن «فراني» في المنزل فلم أهتم بتفقد الأمر».

صعدا الدرجات الإسمنتية المتكسِّرة نحو باب المطبخ من الرواق الخلفي. أمسك لها الباب، وهو يحمل حقائب آلات التصوير. وقد قال حينما أخرجها من الشاحنة:

ـ الحرارة فظيعة بحيث لا يمكن أن أترك المعدات في الشاحنة.

كان الجو ألطف قليلًا في المطبخ، لكنه لا يزال حارًّا. أخذ الكلب الكولي يتشمَّم حول حذاءَي «كينكيد»، ثم خرج إلى الرواق الخلفي واستلقى مسترخيًا على الأرضية بينما كانت «فرانشيسكا» تنزع قطع الثلج من قوالب معدنية وتصب الشاي المحضَّر على البارد من إبريق زجاجي سعة نصف جالون. كانت تعلم أنه يراقبها، وقد جلس إلى مائدة المطبخ، وساقاه الطويلتان ممدودتان أمامه، يمشط شعره بكلتا يديه.

ـ ليمون؟

ـ نعم، من فضلِك.

ـ سكر؟

ـ كلَّا، شكرًا لك.

تقطّر عصير الليمون ببطء على جانب كأس، ورأى هو ذلك أيضًا. لا يَفوت «روبرت كينكيد» شيء.

وضعت «فرانشيسكا» الكأس أمامه. ووضعت كأسها على الجانب الآخر من المائدة ذات السطح الفورمايكا، كما وضعت باقة زهورها في مياه، في وعاء زجاج قديم للجيلي لا تزال عليه بقايا صورة مطبوعة لـ«دونالد دَك». استندت على نضد المطبخ، وتوازنت على قدم واحدة، وخلعت حذاءها ذا الرقبة، ثم وقفت على قدمها الحافية وكررت الأمر نفسه مع الفردة الأخرى.

أخذ رشفة صغيرة من الشاي وتفحص «فرانشيسكا». طولها بين خمس وست أقدام، أربعينية أو أكبر قليلًا، وجه جميل، وجسد رشيق ودافئ. لكنه أينما سافر كان يجد نساء جميلات. تلك المسائل الجسدية لطيفة، ومع ذلك فما كان يثير اهتمامه حقًّا هو الذكاء والشغف المتولدان عن عيش الحياة، والقدرة على التأثير والتأثر بالتفاصيل الدقيقة للعقل والروح. لذلك كانت صغيرات السن من النساء معظمهن غير جذابات بالنسبة إليه، مهما بلغ جمالهن الخارجي، فلم يعشن حياة طويلة أو شاقة بما يكفي لكي يمتلكن تلك الخصال التي تثير اهتمامه.

ولكن شيئًا ما في «فرانشيسكا جونسن» أثار اهتمامه. ثمة ذكاء؛ بوسعه أن يحس ذلك. وثمة شغف، مع أنه لم يستطع أن يدرك تمامًا إلامَ يتوجه شغفها هذا، أو إن كان موجهًا نحو شيء ما على الإطلاق.

فيما بعد، سوف يخبرها بأن رؤيته لها وهي تخلع حذاءها في ذلك اليوم كانت إحدى أكثر اللحظات حسية من بين ما يمكنه أن يتذكر، حسية بطريقة لا يمكنه تحديدها، غير أن السبب لم يكن مهمًّا، فهذه ليست طريقته في التعامل مع حياته. وقال لها:

ـ التحليل يدمر الصورة الكلية. بعض الأشياء، الأشياء السحرية، لا بد أن تبقى كاملة. إذا نظر المرء إليها مجزأة، تتبدد.

جلست إلى المائدة، وإحدى قدميها مطوية تحتها، وسحبت للوراء خصلة من شعرها سقطت على وجهها، وأعادت تثبيت شعرها بالمشبك المصنوع من ظهر السلحفاة. عندئذٍ تذكرت شيئًا ما، نهضت واتجهت إلى طرف خزانة المطبخ وأحضرت منفضة سجائر، ووضعتها على المائدة حيث يمكنه الوصول إليها.

كان ذلك إذنًا ضمنيًّا له، فسحب علبة سجائره ومدها نحوها. أخذت واحدة ولاحظت أنها مبتلة قليلًا بسبب عرقه الغزير. الروتين نفسه. أمسك لها الولاعة «الزيبو» الذهبية، ولمست يده لتثبتها، وأحست بجلده بأطراف أناملها، وتراجعت معتدلة في جلستها. كان مذاق السيجارة رائعًا فابتسمت.

ـ ما الذي تقوم به تحديدًا ـ أقصد مهمة التصوير؟

نظر إلى سيجارته وتحدث بهدوء:

ـ إنني مصوِّر فوتوغرافي بنظام التعاقد، لصالح مجلة «ناشيونال جيوغرافيك»، جزءًا من الوقت. إما أن تخطر لي أفكار وأبيعها

للمجلة وألتقط الصور، وإما أن يكون لديهم شيء يريدون مني أن أضطلع به فيتصلوا بي. إنه عمل لا يتيح مجالًا كبيرًا للتعبير الفني، فالمجلة تحرص تمامًا على التقاليد الراسخة، غير أنهم يدفعون أجرًا معقولًا. ليس عظيمًا، ولكنه معقول، وثابت. بقية الوقت أكتب وألتقط الصور من غير تكليفات وأرسل إنتاجي إلى مجلات أخرى. وإذا ما ضاقت الأحوال أنخرط في أي عمل لحساب شركة كبيرة، مع أنني أجد ذلك خانقًا بدرجة رهيبة.

أحيانًا أكتب الشعر، لنفسي فقط. بين الحين والآخر أحاول أن أكتب قصصًا أدبية، لكن لا يبدو أنني لديَّ ولع بكتابة القصص. أعيش في شمال سياتل وكثيرًا ما أعمل في نواحي تلك المنطقة. أحب أن ألتقط صورًا لقوارب الصيد والمحميات الهندية والمناظر الطبيعية.

مهام مجلة «جيوغرافيك» كثيرًا ما تأخذني إلى أحد المواقع لبضعة أشهر، وخصوصًا من أجل موضوع هام حول شيء مثل جزء من حوض الأمازون أو صحراء شمال أفريقيا. عادةً ما أسافر بالطيران لأداء مهمة من هذا النوع ثم أستأجر سيارة. لكن خطر لي أن أقود سيارتي عبر بعض الأماكن وأستكشفها بحثًا عن مشاريع مستقبلية. أتيت إلى هنا بمحاذاة بحيرة «سوبريور»؛ وسوف أرجع عبر جبال «البلاك هيلز». وماذا عنكِ أنتِ؟

لم تتوقع «فرانشيسكا» منه أن يطرح عليها سؤالًا، فتلعثمت لوهلة:

ـ أوه، ربَّاه، لا شيء قريب ممَّا تفعله. حصلت على شهادة في الأدب المقارن. وكانت هناك صعوبات في العثور على معلمين من أجل بلدة ونترست عندما أتيت إلى هنا في ١٩٤٦، واعتبروني مرشحة مقبولة لأنني زوجة رجل من أهل البلدة ومن المحاربين السابقين. وهكذا استخرجت تصريحًا بالتدريس ودرَّستُ اللغة الإنجليزية للمرحلة الثانوية لبضع سنين. لكن «ريتشارد» لم ترُقْ له فكرة عملي، قال إنه يمكنه أن يتكفل بنا تمامًا، ولا حاجة إلى ذلك، وخصوصًا بينما كان الولدان يكبران. لذلك توقفت عن العمل وأصبحت زوجة مزارع بدوام كلي. هذا كل شيء.

لاحظَت أن شايه المثلج أوشك على الانتهاء فصبَّت له مزيدًا منه من الإبريق.

ـ شكرًا. وكيف تجدين العيش هنا في أيوا؟

أحست في سؤاله هذا بلحظة اختبار حاسم. كانت تعلم، الإجابة النموذجية ستكون: «لا بأس بالعيش هنا، المنطقة هادئة. والناس في غاية اللطف». لم تجب في الحال.

ـ أيمكنني أن آخذ سيجارة أخرى؟

ومرة أخرى علبة سجائر «كاميل»، ومرة أخرى القدَّاحة، ومرة أخرى تلمس يده، بخفة. سرى ضوء الشمس عبر باب الردهة الخلفية وسقط فوق الكلب، الذي نهض وتحرك خارج نطاق

بصرها. للمرة الأولى، نظرت «فرانشيسكا» في عينَي «روبرت كينكيد».

ـ من المفترض بي أن أقول: «لا بأس بالعيش هنا، المنطقة هادئة، والناس في غاية اللطف». وكل ذلك صحيح، بقدر كبير. والناس فعلًا لُطفاء، بطريقة ما. جميعنا نساعد بعضنا بعضًا. إذا مرض شخص أو تأذى، يجتمع الجيران بكل همة ويجمعون الذرة أو يحصدون الشوفان أو يفعلون ما يلزم فعله. وفي البلدة، يمكنك أن تترك سيارتك من غير أن تغلقها، وتسمح لأطفالك بالركض من غير قلق عليهم. يوجد كثير من الأمور الطيبة بشأن الناس هنا، وأنا أحترمهم لهذه الخصال.

لكن...

ترددت، ودخنت، ونظرت عبر المائدة نحو «روبرت كينكيد»:

ـ ليس هذا ما حلمت به وأنا صبية صغيرة.

الاعتراف، أخيرًا. ظلت الكلمات في داخلها لسنوات، ولم تنطقها قَطُّ. ها هي قد قالتها الآن لرجل ذي شاحنة خضراء من بيلينجهام، في واشنطن.

لم يقل شيئًا لوهلة. ثم قال:

ـ لقد كتبت شيئًا في دفتري قبل يومٍ أو اثنين، ربما أستخدمه فيما بعد، فقط خطر لي بينما أقود السيارة على الطريق؛ وهو ما يحدث لي كثيرًا. يقول ما معناه: «الأحلام القديمة كانت أحلامًا

جميلة؛ لم تتحقق، لكني سعيد لأنني حلمت بها». لست متأكدًا مما يعنيه ذلك، لكني سوف أستخدمه في مكان ما. لذلك أظن أنني أعرف طبيعة شعوركِ.

ابتسمت له «فرانشيسكا» عندئذٍ. للمرة الأولى، ابتسمت ابتسامة دافئة وعميقة. وتحركت غريزة المقامرة في داخلها:

ـ هل تود أن تبقى لتناول العشاء؟ أسرتي مسافرة، لذلك لم أحضر طعامًا كثيرًا، ولكني أستطيع أن أدبر شيئًا سريعًا.

ـ الحقيقة، أنا سئمت فعلًا من محلات البقالة وأكل المطاعم. هذا مؤكد. لذلك إن لم يكن فيه إزعاج لكِ، فإنني أقبل دعوتكِ.

ـ هل تحب ضلوع الخنزير؟ يمكنني أن أعدها مع بعض الخضراوات من الحديقة.

ـ الخضراوات تكفي، سيكون هذا رائعًا بالنسبة إليَّ. أنا لا آكل اللحم. لم أتناوله منذ سنين. ليست مسألة كبيرة، لكن أحس أنني أفضل هكذا.

ابتسمت «فرانشيسكا» من جديد.

ـ هنا، في هذه النواحي، لن تجد لوجهة النظر تلك رواجًا كبيرًا. «ريتشارد» وأصدقاؤه سيقولون إنك تحاول أن تدمر أسباب رزقهم. عن نفسي لا أتناول لحمًا كثيرًا؛ لا أعرف لذلك سببًا مؤكدًا، كل ما هنالك أنني لا أميل له. لكن في كل مرة أحاول أن أعد عشاء خاليًا من اللحوم لأسرتي لا بدَّ أن أسمع صيحات

التمرد. وهكذا توقفت تقريبًا عن أن أجرب معهم ذلك. سيكون من الجميل أن أطبخ شيئًا مختلفًا من باب التغيير.

ـ اتفقنا، لكن لا ترهقي نفسكِ كثيرًا بسببي. اسمعي، لديَّ حزمة أفلام في مُبردي. لا بدَّ أن أسكب الماء الذائب من الثلج وأن أنظم الأشياء قليلًا. لن يستغرق هذا طويلًا.

نهض واقفًا وشرب آخر ما تبقى من شايه.

راقبته وهو يمر من مدخل المطبخ، ثم عبْر الشرفة، حتى الباحة. لم يترك الباب السلك يرتطم بشدة كما يفعل جميع الآخرين، بل بدلًا من ذلك أغلقه برفق. قبيل أن يخرج إلى الباحة، أقعى ليربت على الكلب، الذي قدَّر له هذا الاهتمام ومنحه عدة لعقات دبقة على ذراعيه.

في الطابق الثاني، أخذت «فرانشيسكا» حمَّامًا سريعًا، وبينما كانت تجفف جسدها، اختلست نظرة نحو الباحة من فوق حافة الستارة النصفية للنافذة. كانت حقيبته مفتوحة، وكان يغتسل، مستخدمًا طلمبة يدوية قديمة. كان عليها أن تخبره أن بوسعه أن يأخذ حمَّامًا في المنزل إذا أراد. وقد فكرت في ذلك بالفعل، لكن لسانها انعقد لوهلة، متجمدًا أمام مستوى الحميمية الذي تضمنه ذلك، ثم نسيت أن تقول أي شيء بينما هي تطفو شاردة في ارتباكها.

لكن «روبرت كينكيد» كان قد اغتسل في ظروف أسوأ. اغتسل بسحب دلاء من ماء نتن في قرى نائية محفوفة بالمخاطر،

واغتسل من ماء زمزميته وسط الصحراء. في باحة مزرعتها، خلع ثيابه العليا حتى وسطه، واستخدم قميصه المتسخ في وظيفتَي الليفة والمنشفة. «منشفة»، ذكرت نفسها موبخة. «على الأقل منشفة؛ كان يمكنني أن أقدم له ذلك».

انعكس ضوء الشمس على شفرة حلاقته، حيث وُضعت على الإسمنت إلى جانب الطلمبة، وراقبته يصبن وجهه ويحلق. كان صلبًا، ها هي الكلمة نفسها تخطر لها من جديد. لم يكن ضخم الجسد، أطول قليلًا من ست أقدام، أَميل للنحافة. لكن له عضلات كتف ضخمة بالنسبة إلى حجمه، وكان بطنه مستويًا كأنه حد السكين. لم تبدُ عليه سنه أيًّا كانت، كما لم يكن بمظهر الرجال المحليين ممن يضعون كثيرًا للغاية من مرق اللحم فوق المقرمشات في وجبة الصباح.

في آخر رحلة تسوُّق لها إلى دي موين، اشترت عطرًا جديدًا ـ اسمه «أغنية الريح» ـ ووضعت منه الآن، بقدر ضئيل للغاية. أي ثياب ترتدي؟ لم يبدُ مناسبًا لها أن تبالغ في التأنق، بما أنه لا يزال في ثياب العمل. ارتدت قميصًا أبيض بكمين طويلين وشمرت كميه لما تحت المرفق مباشرة، وسروال جينز نظيفًا، وصندلًا. وضعت في أذنيها الحلق الطارة الذهبي الذي قال لها «ريتشارد» إنه يجعلها تبدو امرأة لعوبًا، وسوارًا ذهبيًّا في رسغها. جمعت الشعر بمشبك، وتركته ينسدل على ظهرها. بدا لها ذلك ملائمًا.

عندما رجعت إلى المطبخ كان جالسًا هناك ومعه حقائب معداته والمبرِّد، مرتديًا قميصًا كاكيًّا نظيفًا، وفوقه الصديري البرتقالي.

على المائدة كانت ثلاث آلات تصوير وخمس عدسات، وخرطوشة جديدة من سجائر «كاميل». كان مكتوبًا على جميع الكاميرات «نيكون»، وهكذا أيضًا العدسات السوداء، اثنتان قريبتا المدى واثنتان متوسطتان وواحدة بعيدة. كانت المعدات مخدوشة ومنقورة في بعض المواضع. غير أنه كان يعاملها بمنتهى الحرص، وفي ألفة مع ذلك، بينما يمسحها بخرقة أو ينظفها بفرشاة أو ينفخ الغبار عنها.

رفع بصره متطلعًا نحوها، بوجه جاد من جديد، وجه خجول.

ـ لديَّ بعض البيرة في المبرد، تحبين واحدة؟

ـ نعم، سيكون ذلك لطيفًا.

أخرج زجاجتَي بيرة «بادوايزر». عندما فتح غطاء المبرد، رأت علبًا بلاستيكية شافَّة تتراكم فيها أفلام التصوير مثل جذوع أشجار مقطَّعة ومكوَّمة. كانت هناك أربع زجاجات بيرة أخرى إلى جانب الاثنتين اللتين أخرجهما.

فتحت «فرانشيسكا» دُرجًا بحثت فيه عن فتَّاحة زجاجات، غير أنه قال لها:

ـ لا داعي لذلك.

أخرج مطواته السويسرية متعددة الأغراض من جرابها المتدلي من حزامه وسحب منها أداة فتح الزجاجات، واستخدمها في براعة.

ناولها زجاجة ورفع زجاجته في نصف نخب:

ـ في صحة الجسور المغطاة ساعة العصر، أو ربما الأفضل، في صباح وردي دافئ.

لم تقل «فرانشيسكا» شيئًا لكنها ابتسمت ابتسامة ناعمة ورفعت زجاجتها قليلًا، في تردد وحرج. رجل غريب، غريب عليها وغريب عمومًا، أزهار، عطر، بيرة، ونخب في يوم اثنين حار من أواخر الصيف. ذلك كله يكاد يفوق ما يمكنها التعامل معه.

ـ كان هناك شخص ما منذ زمن بعيد جدًّا أحسَّ بعطش شديد في عصر يوم من أيام أغسطس. وأيًّا كان ذلك الشخص فقد درس عطشه، وخلط بعض المواد، واخترع البيرة. من هنا بدأت، وهكذا انحلَّت المشكلة.

كان يعمل على آلة تصوير، وكأنه تقريبًا يتحدث إليها بينما يشد أحد البراغي على قمة آلة التصوير بمفك براغي صغير للغاية.

ـ سأخرج إلى الحديقة دقيقة واحدة. سأرجع في الحال.

نظر إليها.

ـ أتحتاجين إلى مساعدة؟

هزت رأسها وتجاوزته حيث جلس، وهي تشعر بعينيه على فخذيها، وتتساءل إن كان ظل يشاهدها طول طريقها عبر الشرفة، وتخمن أنه قد فعل.

كان إحساسها صحيحًا. ظل يتابعها بعينيه. هزَّ رأسه ونظر من جديد. شاهد جسدها، وفكر في الذكاء الذي أدرك أنها تحظى به، وتساءل عن أشياء أخرى أحس أنها تحظى بها. كان منجذبًا إليها، ويقاوم هذا الانجذاب ويغالبه.

كانت الحديقة في الظل عندها. سارت «فرانشيسكا» عبرها وهي تحمل وعاءً معدنيًّا عميقًا مطليًّا بالمينا التي تشققت هنا وهناك. جمعت من الزرع جزرًا وبقدونسًا وبعض الجزر الأبيض والبصل واللفت.

حينما دخلت المطبخ كان «روبرت كينكيد» يعيد حزم معداته في حقائبه القماشية، بكل نظام ودقة، كما لاحظت. من الواضح أن كل شيء كان له مكانه المخصص له ولا يوضع إلا في مكانه على الدوام. أنهى زجاجته وفتح اثنتين أخريين، مع أنها لم تنهِ زجاجتها تمامًا بعد. أمالت رأسها إلى الوراء وأتت على الزجاجة الأولى، وناولته الزجاجة الفارغة.

سألها:

ـ أهناك شيء يمكنني أن أفعله؟

ـ يمكنك أن تحضر البطيخة من الشرفة وبعض ثمرات البطاطس من ذلك الدلو الذي هناك.

تحرك بكل رشاقة، إلى درجة أنها ذهلت من السرعة التي ذهب بها إلى الشرفة ثم عاد منها، والبطيخة تحت إبطه، وأربع ثمرات

بطاطس بين يديه.

ـ كفاية؟

أومأت له، وهي تفكر كم بدا لها شبيهًا بالأطياف. وضع الثمار على النضد إلى جانب الحوض حيث كانت تغسل الخضراوات التي جلبتها من الحديقة وعاد إلى مقعده، وأشعل سيجارة «كاميل» بعد أن جلس.

سألته وهي تنظر إلى أسفل نحو الخضراوات التي تعمل عليها:

ـ كم ستبقى هنا؟

ـ لست متأكدًا. لا شيء يستدعي العجلة بالنسبة إليَّ، وموعد تسليم صور الجسر لا يزال بعد ثلاثة أسابيع. سأبقى للوقت الذي أحتاجه لكي أنجز العمل كما يجب، على ما أظن. غالبًا أسبوع أو شيء كهذا.

ـ أين تقيم؟ في مركز البلدة؟

ـ صحيح. مكان صغير فيه كبائن. نُزل مخصص لقائدي المركبات لا أذكر اسمه بالضبط. لقد نزلت فيه هذا الصباح فقط. ولم أفرغ معدَّاتي حتى.

ـ ذلك هو المكان الوحيد الذي يمكن أن تقيم فيه، باستثناء منزل السيدة «كارلسن» التي تؤجِّر غرفًا للعابرين. لكن المطاعم

مستواها محبط جدًّا، وخصوصًا بالنسبة إلى شخص له عاداتك في تناول الطعام.

ـ أعلم هذا، وهي حكاية قديمة معي، لكني تعلمت الرضا بالمتاح. وهذا الوقت من السنة ليس سيئًا بالمرة؛ إذ يمكنني أن أجد منتجات طازجة في المتاجر وعلى فرشات البيع وأنا أقود على الطريق. خبز وأشياء أخرى قليلة، وأدبر حالي بها، بقدر المستطاع. ومع ذلك فمن اللطيف أن أُدعى لتناول وجبة مثل هذه. أنا أقدِّر لك هذا.

مدت يدها نحو النضد ونقرت مفتاح راديو صغير من النوع الذي فيه بكرتان للضبط وقماش حنطي يغطي السماعات. انبعث صوت يغني على ضربات جيتار موقَّعة تصاحبه:

بالوقت في جيبي، والطقس في صَفي...

أبقت مستوى الصوت خفيضًا.

عرض المساعدة قائلًا:

ـ أنا ماهر جدًّا في تقطيع الخضار.

ـ تمام، ها هي لوحة التقطيع، ويوجد سكين في الدرج الذي تحتها مباشرة. سوف أعد يخنة خضار، لذا قطِّع الخضار إلى مكعبات.

وقف على قرب قدمين منها، ينظر إلى أسفل، وهو يقطع ويضلع الجزر واللفت والجزر الأبيض والبصل. قشَّرت «فرانشيسكا»

البطاطس في الحوض، واعيةً بوجودها على هذا القرب من رجل غريب. لم يسبق لها قَطُّ أن فكرت في تقشير البطاطس كفعل قد ترتبط به مشاعر مرتبكة قليلًا.

ـ هل تعزف على الجيتار؟ رأيت جرابه في شاحنتك.

ـ أعزف قليلًا. يمنحني الإحساس بالرفقة، ليس أكثر من ذلك. كانت زوجتي من أوائل المعجبين بالأغنيات الشعبية القديمة، قبل أن تصبح تلك الموسيقى رائجة بوقت طويل، وأخذتني معها في هذا.

تصلب جسد «فرانشيسكا» بدرجة هينة عند سماعها كلمة «زوجتي»، ولم تدرِ لذلك سببًا. كان له كل الحق في أن يكون زوجًا، غير أن الزواج لم يكن يليق به على نحو ما. لم ترد له أن يكون متزوجًا.

ـ لم تستطع أن تتحمل مهامي البعيدة عندما أغيب عن البيت لأشهر. أنا لا ألومها. انسحبت منذ تسعة أعوام، وتم الطلاق بعد سنة من ذلك. لم ننجب أطفالًا، لذا لم يكن الانفصال معقدًا. أخذت هي جيتارًا، وتركت لي الآخر الأرخص بينهما.

ـ هل ما زلت على اتصال بها؟

ـ لا، بالمرة.

كان ذلك هو كل ما قاله. لم تضغط «فرانشيسكا» عليه، لكن حالتها تحسنت، بأنانية، وتساءلت في نفسها من جديد لماذا ينبغي

عليها أن تهتم لهذا بأي طريقة كانت.

قال:

ـ لقد سافرت إلى إيطاليا، مرتين. من أين أنتِ أصلًا؟

ـ نابولي.

ـ لم يسبق لي الذهاب إلى هناك. كنت في الشمال ذات مرة، ألتقط بعض الصور على شاطئ نهر «البو». وذهبت مرة أخرى من أجل مهمة عمل في صقلية.

قشَّرت «فرانشيسكا» البطاطس، متذكرة إيطاليا للحظة، وهي واعية بوجود «روبرت كينكيد» إلى جانبها.

تحركت السحب عاليًا باتجاه الغرب، وتشعب ضوء الشمس أشعة تنحدر في اتجاهات عديدة. تطلع من النافذة فوق الحوض وقال:

ـ ضوء إلهي. هذا هو الضوء الذي تحبه شركات روزنامة التقويم السنوي، كما تحبه أيضًا المجلات الدينية.

قالت «فرانشيسكا»:

ـ يبدو عملك ممتعًا.

شعرت بضرورة أن تواصل حديثًا محايدًا بينهما.

ـ صحيح، ممتع، وأنا أحبه جدًّا. أحب السفر على الطريق، وأحب صنع الصور.

لاحظت أنه قال «صنع» الصور.

ـ أنت «تصنع» الصور، لا «تأخذها»؟

ـ نعم. أو هكذا أفكر بالأمر على الأقل. هذا هو الفرق بين هواة التصوير ومَن يكسب رزقه منه. عندما أنتهي من ذلك الجسر الذي رأيناه اليوم، لن يبدو كما تتوقعين بالضبط. سوف أصنع منه شيئًا يخصني، من خلال اختياري للعدسات، أو زاوية الكاميرا، أو التكوين العام، أو على أقرب احتمال من خلال مزيج يتألف من ذلك كله.

إنني لا أكتفي بالتقاط الأشياء كما هي؛ بل أحاول أن أصنع منها شيئًا يعكس إحساسي الشخصي، يعكس روحي. أحاول أن أجد الشِّعر في الصورة. للمجلة أسلوبها ومطالبها، ولا أتفق دائمًا مع ذوق المحرر؛ بل الحقيقة إنني لا أتفق معه أغلب الوقت. وذلك يزعجهم، مع أنهم هم مَن يملكون القرار بشأن ما يُنشر وما يُستبعد. أظن أنهم يعرفون طبيعة قرائهم، لكني أتمنى أن يجازفوا بقدر أكثر ولو قليلًا بين الحين والآخر. أقول لهم ذلك فيزعجهم كلامي.

تلك هي مشكلة كسب العيش عبر أحد أشكال الفن. نتعامل طيلة الوقت مع الأسواق، والأسواق ـ الأسواق العامة ـ مصمَّمة لكي تناسب الذوق المتوسط، فهنا توجد الأعداد. ذلك هو الواقع، على

ما أظن. لكن، كما أخبرتكِ، يمكن لهذا أن يصبح خانقًا جدًّا. يسمحون لي بأن أحتفظ بالصور التي لا يستخدمونها، وهكذا أملك على الأقل ملفاتي الخاصة من مواد تروق لي.

ومن فترة إلى أخرى، أجد مجلة أخرى فتأخذ صورة أو اثنتين، أو أتمكن من كتابة موضوع عن مكان سافرت إليه وإرفاقه بصور أجرأ قليلًا مما تفضله «الناشيونال جيوغرافيك».

في وقت ما سوف أكتب مقالًا بعنوان «فضائل أن تكون هاويًا»، موجهًا إلى جميع أولئك الأشخاص الذين يتمنون لو كسبوا عيشهم من الفن. السوق يقتل الشغف الفني أكثر من أي شيء آخر. بالنسبة إلى أغلب الناس، كلمة السر هي الأمان: إنهم ينشدون الأمان، والمجلات وأصحاب الأعمال يقدمون لهم الأمان، ويقدمون لهم التماثل، ويقدمون لهم الأليف والمريح، ولا يتحدونهم.

وهكذا ما يهيمن على الفن هو الربح وعدد اشتراكات القراء وبقية تلك الأمور. إنهم يقيدوننا جميعًا في عجلة كبرى لنصبح نسخًا مكررة.

يتحدث رجال التسويق دائمًا عن شيء يسمونه «المستهلك». وعندما أسمع تلك الكلمة أتخيل صورة رجل قصير، بدين، يرتدي سروال بيرمودا قصيرًا وواسعًا وقميص هاواي، وعلى رأسه قبعة من قش تتدلى منها فتَّاحات علب البيرة، وهو يقبض بين يديه على رزم الدولارات.

ضحكت «فرانشيسكا» بصوت خفيض، وهي تفكر في الشعور بالأمان والراحة.

ـ لكني لا أشتكي كثيرًا. كما قلت، السفر جميل، وأنا أحب أن أتلاعب بآلات التصوير وأن أبقى في الهواء الطلق. الواقع ليس مطابقًا تمامًا لكلمات هذه الأغنية التي بدأت، لكنها ليست أغنية سيئة.

افترضت «فرانشيسكا» أن ذلك هو الحديث اليومي المعتاد بالنسبة إلى «روبرت كينكيد». أما بالنسبة إليها، فقد كان مادة للأدب. الناس في مقاطعة ماديسون لا يتحدثون بهذه الطريقة، أو عن مثل تلك الأمور. يدور الحديث عن الطقس وعن أسعار المحاصيل وعن المواليد والوفيات والبرامج الحكومية والفرق الرياضية. لا حديث عن الفن أو عن الأحلام. لا حديث عن الحقائق التي تُبقي الموسيقى ساكنة والأحلام في صندوق.

أنهى تقطيع الخضار.

ـ هل هناك أي شيء آخر يمكن أن أفعله؟

هزت رأسها:

ـ لا، كل شيء تحت السيطرة.

جلس إلى المائدة من جديد، أخذ يدخن، ويتناول جرعة من البيرة بين الحين والآخر. أخذت هي تطهو، بينما ترتشف من زجاجة البيرة بين مهامها. كان بوسعها أن تشعر بالكحول يسري في

جسدها، حتى إن كان بهذا القدر القليل. في ليلة رأس السنة، كانت تشرب بعضًا منه مع «ريتشارد» في قاعة احتفالات البلدة. ما عدا ذلك، لا تشرب الكثير، ونادرًا ما يوجد شراب كحولي في المنزل، باستثناء زجاجة براندي اشترتها ذات مرة في نوبة أمل غامضة تتوق لشيء من الرومانسية في حياتهم الريفية. لم تزل الزجاجة كما هي ولم تُفتح حتى.

الزيت النباتي، وكوب ونصف من الخضراوات المقطَّعة. يُطهى المزيج حتى يصبح لونه بنيًّا فاتحًا. يضاف الدقيق ويخلط جيدًا. يضاف الماء، نصف لتر من الماء. ويضاف الخضار المتبقي والتوابل. يُطهى على نار هادئة، أربعين دقيقة تقريبًا.

بينما ينضج الطعام، جلست «فرانشيسكا» قبالته من جديد. حلَّت بالمطبخ روح من حميمية بسيطة، نبعت بطريقة ما من الطهو. إنها تعد العشاء لرجل غريب، بينما هو يقطع اللفت، وهكذا تضيق المسافة وتزول الحواجز بين الغرباء، ومع تراجع الشعور بالغرابة تتسع المساحة للحميمية.

دفع نحوها السجائر والقدَّاحة فوق العلبة. هزت العلبة وأخرجت واحدة، تلمست القدَّاحة في اضطراب وشعرت بارتباك، لم تستطع إشعالها. ابتسم ابتسامة صغيرة، تناول القدَّاحة من يدها في حرص، ضغط العجلة الصغيرة لحجر القدح مرتين قبل أن يبزغ لسان اللهب. أمسك القدَّاحة، وأشعلت سيجارتها. عند وجودها مع الرجال عمومًا، كانت تشعر أنها رشيقة مقارنة بهم، لكن ليس مع «روبرت كينكيد».

اصطبغت شمسٌ بيضاء بالحمرة وكبرت ومالت مباشرة فوق حقول الذرة. عبر نافذة المطبخ كان يمكنها أن ترى صقرًا يمتطي تيارات الهواء الصاعدة لساعة المساء الأولى. في الراديو نشرة أخبار السابعة مساء وموجز أنباء السوق، و«فرانشيسكا» تمد بصرها عبر المائدة ذات الفورمايكا الصفراء إلى «روبرت كينكيد»، الذي قطع مسافة طويلة حتى وصل إلى مطبخها. مسافة طويلة، مسافة أميال وأميال.

قال مشيرًا نحو البوتاجاز:

ـ للطعام رائحة طيبة من الآن، له رائحة... مطمَئنَّة.

نظر إليها.

«مطمَئنَّة؟ أيمكن لأي شيء أن تكون له رائحة مطمَئنَّة؟» كانت تفكر بالعبارة، وهي تسأل نفسها. كان على حق. بعد كل ضلوع الخنزير وشرائح اللحم والمشويات التي طهتها لأسرتها، كان هذا طبخًا مطمَئنًّا. لا ينطوي على أي عنف على طول السلسلة الغذائية، باستثناء ربما انتزاع الخضراوات من الأرض. كانت اليخنة تنضج في طمأنينة وتبعث رائحة مطمَئنَّة. وسادت الطمأنينة هنا في المطبخ.

ـ إن لم يكن لديكِ مانع، احكي لي قليلًا عن حياتكِ في إيطاليا.

كان مستريحًا في كرسيه، ممددًا ساقيه وقد قاطع قدميه عند الكاحلين.

ضايقها الصمت وهي معه، لذا تكلمت. حكت له عن سنوات نشأتها، وعن المدرسة الداخلية، والراهبات، ووالديها: ربة بيت ومدير بنك. حكت له عن الوقوف عند سور كورنيش البحر وهي صبية مراهقة ومشاهدة سفن من جميع أنحاء العالم. حكت له عن الجنود الأمريكيين الذين أتوا تاليًا، وكيف قابلت «ريتشارد» في مقهى حيث كانت هي وصاحباتها يشربن القهوة. كانت الحرب قد حصدت أرواحًا، وتساءلا إن كانا سيتمكنان من الزواج ذات يوم. لم تذكر له شيئًا عن «نيكولو».

أنصت إليها، لم يقل أي شيء، وأخذ يومئ برأسه في تفهم بين الحين والآخر. وحينما صمتت في الختام، قال لها:

ـ أذكر أنكِ قلتِ إن لديكِ أولادًا، صحيح؟

ـ صحيح. «مايكل» في السابعة عشرة، و«كارولين» في السادسة عشرة. كلاهما يذهب إلى المدرسة في ونترست، وهما عضوان في شبكة منظمات «الفور إيتش» الشبابية؛ ولهذا السبب هما الآن في معرض ولاية إلينوي، يعرضان الثور الصغير الخاص بـ«كارولين».

ذلك أمر لم أستطع أبدًا أن أتأقلم معه، أو أن أتفهمه، أي كيف عساهم يغدقون كل ذلك الحب والرعاية على الحيوانات ثم يرونها تُباع لكي تُذبح. ومع ذلك فأنا لا أجرؤ على قول أي شيء بهذا الخصوص. سوف ينقض عليَّ «ريتشارد» وأصحابه في غمضة عين. إنما في ذلك الأمر نوع من التناقض، تناقض يتسم بالبرودة والقسوة.

ساورها إحساس بالذنب عند ذكرها اسم «ريتشارد». إنها لم تفعل أي شيء، أي شيء على الإطلاق، ومع ذلك فقد أحست بالذنب، إحساس تولَّد من احتمالات بعيدة. وتساءلت كيف عساها تدير نهاية السهرة وما إذا كانت قد ورطت نفسها في شيء يُعجزها التعامل معه. ربما يغادر «روبرت كينكيد» ببساطة. بدا لها دمثًا إلى حدٍّ بعيد، ولطيفًا بما فيه الكفاية، بل إنه خجول قليلًا.

بينما يتحدثان، اكتست السماء بزرقة داكنة، ومسَّ ضباب خفيف عشب المرج. فتح لهما زجاجتَي بيرة أخريين بينما كانت يخنة «فرانشيسكا» تنضج، في طمأنينة. نهضت وأسقطت بعض كرات العجين في الماء المغلي، قلَّبت، ومالت على حوض المطبخ، وأحست بالدفء من ناحية «روبرت كينكيد» الآتي من بيلينجهام، واشنطن. تمنت لو أنه لن يغادر مبكرًا أكثر مما يجب.

تناول صحنين من اليخنة بآداب مائدة ممتازة، وامتدح الطعام لها مرتين. كانت البطيخة ممتازة، والبيرة باردة. كان المساء أزرق، و«فرانشيسكا جونسن» في الخامسة والأربعين من عمرها، وغنى «هانك سنو» إحدى الأغنيات عن القِطار على محطة «كيه إم إيه»، التي تبث من شيناندواه، ولاية أيوا.

أمسيات عتيقة وموسيقى بعيدة

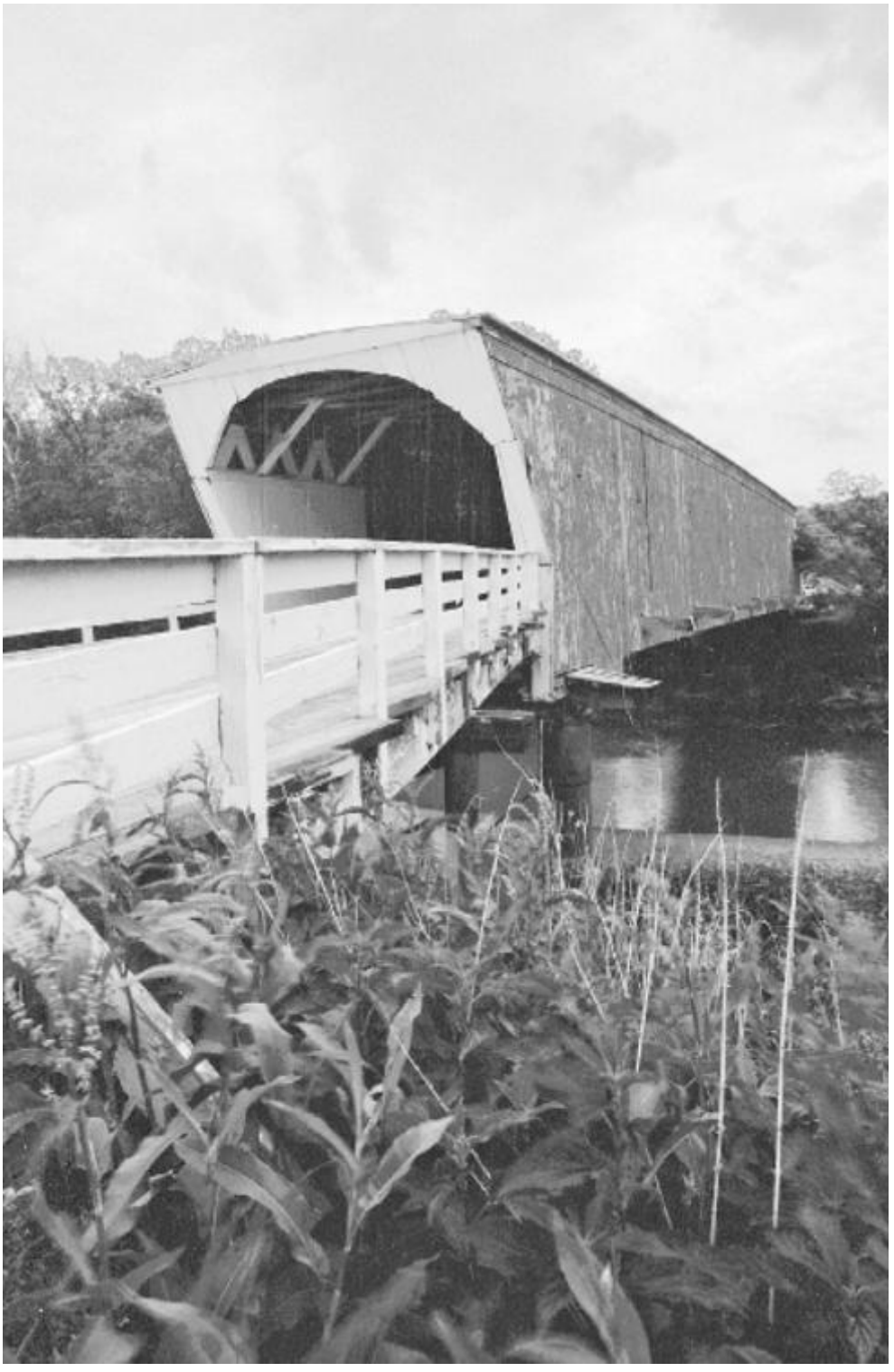

وماذا الآن؟ هكذا تساءلت «فرانشيسكا» في نفسها. انتهى العشاء، وهما جالسان هنالك.

لكنه اهتم بهذا الأمر.

ـ ما رأيكِ في تمشية بالخارج في المرج؟ الجو منعش قليلًا هناك.

وعندما أجابته بالموافقة، مدَّ يده إلى حقيبته القماشية وسحب منها كاميرا، وعلَّق حزامها فوق كتفه.

دفع «كينكيد» الباب الخلفي للرواق وأمسكه مفتوحًا من أجلها، تبعها للخارج، ثم أغلقه برفق. سارا على الممشى ببلاطه المشقق، عبر فناء المزرعة الممهد بالحصى، ثم سارا على مساحة العشب شرق سقيفة المعدات، انبعثت من السقيفة رائحة شحم دافئ.

عندما بلغا السياج، أنزلت بإحدى يديها السلك الشائك وخطت من فوقه، وهي تحس بملمس الندى على قدميها حول سيور الصندل النحيلة. فعل كما فعلت تمامًا، وهو يؤرجح بلا مشقة حذاءه طويل الرقبة من فوق سلك السياج.

سألها:

ـ هل تسمون هذا «مرجًا» أم «مرعى»؟

ـ «مرعى»، على ما أظن. الماشية تُبقي العشب قصيرًا. انتبه لخطواتك لئلا تدوس على فضلاتها.

قمر يكاد يكون بدرًا تامًّا أخذ يصعد السماء من جهة الشرق، وقد اصطبغت صفحتها بلون أزرق لازوردي بغياب الشمس تحت خط الأفق منذ قليل فقط. على الطريق من تحت، مرت سيارة

كالسهم، بصوت مرتفع لأنبوب العادم. إنه الفتى ابن أسرة «كلارك». مهاجم في فريق وِنترست لكرة القدم الأمريكية. واعد «جودي ليفيرنسن».

لم تخرج في تمشية مثل هذه منذ فترة طويلة. دائمًا ما يتناولون العشاء في الخامسة مساءً، ومن بعده نشرة أخبار التلفزيون، ثم برامج السهرة التي يشاهدها «ريتشارد» وأحيانًا الولدان إذا كانا قد انتهيا من واجباتهما المدرسية. غالبًا ما تبقى «فرانشيسكا» في المطبخ لتقرأ ـ كتبًا مستعارة من مكتبة ونترست العامة ومن نادي القراءة المنتمية إليه، تاريخ وشِعر وروايات ـ أو قد تجلس على الشرفة الأمامية للمنزل إذا كان الجو طيبًا. التلفزيون يصيبها بالضجر.

وحينما كان «ريتشارد» يناديها: «فراني، لا بد أن تأتي لتري هذا!»، كانت تدخل وتجلس معه لبعض الوقت. كان «إلفيس بريسلي» سببًا دائمًا لمثل تلك الاستدعاءات، وهكذا أيضًا فرقة «البيتلز» عند ظهورها الأول في برنامج منوعات «إد سوليفان». نظر «ريتشارد» إلى شَعرهم وأخذ يهز رأسه في استهجان وغير تصديق.

لبرهة قصيرة، امتدت شرائط حمراء وتقاطعت عبر جزء من السماء. قال «روبرت كينكيد» وهو يشير إلى أعلى:

ـ إنني أسمي ذلك «الضوء المرتد». أغلب الناس ينحون آلات التصوير جانبًا مبكرًا أكثر مما يجب. بعد أن تهبط الشمس مباشرة، كثيرًا ما تكون هناك برهة تتسم بضوء ولون لطيفين حقًّا

في السماء، لدقائق قليلة فقط، عندما تكون الشمس تحت خط الأفق لكن ضوءها لا يزال يرتد في السماء.

لم تقل «فرانشيسكا» شيئًا، وهي تتساءل عن رجل بدا له الفرق بين «مرعى» و«مرج» أمرًا له شأن، وشَعر بالحماس بسبب لون السماء، وكتب شيئًا من الشعر لكنه لم يكتب كثيرًا من القصص. رجل يعزف على الجيتار، ويكسب رزقه بالتقاط الصور، ويحمل أدواته في حقائب ظهر قماشية. رجل بدا مثل الريح، وتحرك مثلها، وربما نشأ منها.

تطلع إلى أعلى، ويداه في جيبَي سرواله الجينز، والكاميرا تتدلى بجانب وركه اليسرى.

تفاحات القمر الفضية

تفاحات الشمس الذهبية

ردد الكلمات بصوته الباريتون متوسط المدى وبأداء ممثل محترف.

رنَت إليه مدققة، وقالت:

ـ «أغنية أنجس المتسكع» لـ«و.ب. ييتس».

ـ صحيح. أعماله جميلة، «ييتس». واقعية، إيجاز، شهوانية، جمال، سحر. يجذبني بسبب إرثي الأيرلندي.

لقد قال كل شيء، أوجزه ببساطة في خمس كلمات فقط. كانت «فرانشيسكا» تجهد نفسها لتفسير شعر «ييتس» لطلاب ونترست، لكنها لم تتمكن من النفاذ إلى عقول معظمهم. وقد كان من بين أسباب اختيارها تدريس «ييتس» لهم هو ما قاله «كينكيد» توًّا، معتقدة بأن كل تلك السمات سوف تجذب المراهقين الذين تُصدر غددهم قرعًا مُدويًا مثل موسيقى آلات النفخ النحاسية لفِرق الاستعراض في المدارس الثانوية خلال الاستراحات بين أشواط كرة القدم. غير أن الموقف المتحامل على الشعر برمته الذي تبناه هؤلاء الطلاب، وهو رؤيته نتيجة رخاوة في الرجولة، كان أشد بأسًا من أن يتغلب عليه حتى شاعر مثل «ييتس».

تذكرت «ماثيو كلارك» ينظر إلى الصبي الجالس إلى جانبه ويكوِّر يديه أمام صدره كما لو كان يمسك بهما نهدَي امرأة عندما قرأت عليهم: «تفاحات الشمس الذهبية». غالب الولدان ضحكات مكتومة، وتضرجت وجنات البنات خجلًا في الصف الخلفي.

سوف يواصلون عيش بقية حياتهم متخذين تلك المواقف ذاتها. هذا ما أحبطها، أن تدرك ذلك، وأحست أنها ضعيفة ووحيدة، على الرغم من المودة الظاهرة في مجتمع البلدة. لم يكن الشعراء مُرحبًا بهم هنا. كان أهل مقاطعة ماديسون، تعويضًا عن إحساس طوعي بالدونية الثقافية، يقولون: «إنه مكان جيد لتنشئة الأطفال». ولطالما شعرت برغبة أن تجيبهم قائلة: «لكن أهو مكان جيد لتنشئة الراشدين؟».

من غير أي خطة واعية، كانا قد سارا ببطء لمسافة بضع مئات من الياردات داخل المرعى، ورسما حلقة واسعة، وتوجها من جديد نحو المنزل. حلَّ الظلام تمامًا عليهما بينما يجتازان السياج، وهو الذي أنزل السلك الشائك من أجلها هذه المرة.

تذكرت البراندي.

ـ لديَّ بعض البراندي، أم تفضل بعض القهوة؟

ـ ألا يوجد اختيار يجمع الاثنين معًا؟

انبعثت كلماته في الظلام التام، غير أنها أدركت أنه كان مبتسمًا.

وإذ يدخلان إلى الدائرة التي يلقيها ضوء الفناء على العشب والحصى، أجابته:

ـ طبعًا.

وهي تسمع في صوتها صوتًا آخر، صوت شيء ما أقلقها. إنه صوت الضحكات الرخية في مقاهي نابولي.

وجدت صعوبة في العثور على قدحين بدون أي خدش عليهما. مع أنها كانت متأكدة أن الأكواب المخدوشة ليست شيئًا غريبًا عليه، فقد أرادت قدحين مثاليين هذه المرة. كانت الكأسان المخصصتان لشرب البراندي مقلوبتين ومختفيتين في عمق الخزانة، لم تُستخدما قَطُّ، شأنهما شأن البراندي نفسه. اضطرت

أن تشب على أطراف أصابع قدميها لتصل إليهما وكانت منتبهة لصندلها المبلل ولسروالها الجينز المحبوك على مؤخرتها.

جلس على المقعد نفسه الذي استخدمه من قبل وأخذ يراقبها. الطرق القديمة. إنها الطرق القديمة تغزوه من جديد. تساءل كيف سيكون ملمس شعرها تحت أنامله، وبأي قدر سيتلاءم منحنى ظهرها مع راحة يده، وبماذا سيشعر وهي تحته.

الطرق القديمة تصارع ضد كل ما نتعلمه، تصارع ضد أصول اللياقة التي ترددت على آذان الناس عبر قرون من الثقافة، القواعد الصارمة للإنسان المتحضر. حاول أن يفكر في شيء آخر، التصوير أو الطريق أو الجسور المغطاة. أي شيء عدا كيف تبدو هي الآن.

غير أنه أخفق وشرع يتساءل مجددًا ماذا سيكون ملمس بشرتها إذا مسها، وإذا لامس بطنه بطنها. تلك الأسئلة الأزلية، هي ذاتها دائمًا وأبدًا. الطرق القديمة اللعينة، تقاتل لكي تصعد إلى السطح. لكنه لطمها بقوة ليعيدها حيث كانت، دفعها إلى أسفل، وأشعل سيجارة «كاميل» وأخذ نفسًا عميقًا.

كانت تشعر بعينيه عليها باستمرار، مع أن نظراته إليها كانت حذرة، غير مكشوفة ولا مقتحمة بالمرة. أدركت أنه أدرك أن البراندي لم يُصب في هاتين الكأسين من قبل قَطُّ. وأدركت أيضًا أنه، بحسه للمآسي كرجل أيرلندي، لم يخلُ من شعور ما نحو ذلك الخواء. لم يكن شعوره شفقة. فهو لم يكن من هذا النوع، بل لعله أسًى. تكاد تسمع عقله وهو يصوغ الكلمات:

الزجاجة لم تُفتح، والكأسان فارغتان، مدَّت ذراعها لتصل إليهما،

هناك في موضع ما شمال النهر الأوسط، في ولاية أيوا.

راقبتها بالعينين أنفسهما اللتين رأتا شعب «الجيفارو» في حوض الأمازون

ورأتا طريق الحرير وقافلة من المسافرين يثيرون الغبار من ورائي،

بالغين مساحات بِكرًا من سماوات آسيا.

حينما فضَّت «فرانشيسكا» خاتم زجاجة البراندي الذي يشير إلى ولاية أيوا، خطفت نظرة إلى أظافرها وتمنت لو كانت أطالتها قليلًا واعتنت بها أكثر. حياة المزرعة لا تسمح بالأظافر الطويلة، ولم يكن لذلك أي أهمية حتى هذه اللحظة.

البراندي، الكأسان، على المائدة. بينما تعد القهوة فتح الزجاجة وصبَّ في كل كأس القدر المناسب تمامًا. لا شك أن «روبرت كينكيد» له خبرة سابقة مع براندي ما بعد العشاء.

وجدت نفسها تتساءل كم من المطابخ، والمطاعم الفاخرة، وغرف الجلوس خفيضة الإضاءة تدرَّب فيها على تلك المهارة الصغيرة. وكم من الأيدي النسائية ذات الأظافر الطويلة رآها تشير نحوه برقة، ممسكةً بالساق النحيلة لكأس البراندي، وكم من الأعين الزرقاء ـ المستديرة والبنية ـ اللوزية تطلعت إليه عبر أمسيات

أجنبية، بينما تهتز خفيفًا القوارب الشراعية التي ألقت مراسيها إلى الشاطئ ويصفع الموج أرصفة الموانئ العتيقة؟

كانت إضاءة المطبخ الساقطة من السقف مباشرة شديدة السطوع بما لا يلائم تناول القهوة والبراندي. كانت «فرانشيسكا جونسن»، زوجة «ريتشارد جونسن»، ستتركها مضاءة كما هي. غير أن «فرانشيسكا جونسن»، المرأة التي تتمشى بعد العشاء على العشب وتهيم مع أحلام الصبايا، سوف تطفئها. لو أشعلت شمعة واحدة لكانت في موضعها تمامًا، لكنها خشيت مما في ذلك من مبالغة، فربما تصل له فكرة خاطئة. أضاءت الضوء الصغير فوق مَجْلى الصحون وأطفأت الإضاءة القوية من فوقهما. ليس الحال مثاليًّا بعد، لكن هكذا أفضل.

رفع كأسه حتى مستوى الكتف وحركها نحوها.

ـ نخب الأمسيات العتيقة والموسيقى البعيدة.

لسبب ما خطفت تلك الكلمات أنفاسها فأخذت نفسًا قصيرًا سريعًا، لكنها مست كأسه بكأسها ومع أنها ودَّت لو تقول: «نخب الأمسيات العتيقة والموسيقى البعيدة»، فقد اكتفت بابتسامة صغيرة.

أخذا يدخنان، دونما حديث، فقط يشربان البراندي، يشربان القهوة. صاح طائر درَّاج من وسط الحقول. والكلب الكولي، «جاك»، نبح مرتين من الفناء. واختبر البعوض باب شَبكة السلك بالقرب من المائدة، وفراشة بيضاء وحيدة تُحرضها احتمالات

ضوء المَجْلى، تدور وتناور مع أفكارها لكن على ثقة من غريزتها.

كان الجو لا يزال حارًّا، لا نسيم، بل بعض الرطوبة الآن. و«روبرت كينكيد» يعرق عرقًا خفيفًا، وأعلى اثنين من أزرار قميصه مفكوكان. لم يكن يوجه نظرة مباشرة نحوها، مع أنها أحست بأنه يراها جانبيًّا على محيط رؤيته، حتى إن بدا كأنه يحدق عبر النافذة. بهذه الزاوية التي كان يستدير بها، كان بوسعها أن ترى أعلى صدره من خلال أزرار قميصه المفتوحة وحبيبات مكورة من بلل الرطوبة وقد استقرت هنالك على جلده.

انتابت «فرانشيسكا» مشاعر طيبة، مشاعر قديمة، مشاعر القصائد والموسيقى. مع ذلك، فقد حان وقت الذهاب، كما حدثت نفسها. الساعة التي فوق الثلاجة تعلن التاسعة واثنتين وخمسين دقيقة، وعلى الراديو يغني «فارون يونج» أغنية تعود إلى بضع سنين خلت: «ضريح القديسة سيسيليا». الشهيدة الرومانية من القرن الثالث الميلادي، تذكرت «فرانشيسكا» ذلك. إنها شفيعة الموسيقيين العميان.

كانت كأسه فارغة. في اللحظة ذاتها التي اعتدل فيها وأدار رأسه من النظر عبر النافذة، رفعت «فرانشيسكا» زجاجة البراندي من عنقها وأومأت بها نحو الكأس الفارغة. هز رأسه يمينًا ويسارًا.

ـ يلزم أن أكون عند جسر «روزمان» عند الفجر، يستحسن أن أمشي.

شعرت بالارتياح، لكنها غرقت في خيبة الرجاء. أخذت تلتفت في داخلها. «نعم، أرجوك، اذهب. خذ كأسًا أخرى. ابقَ. اذهب». لم يكن «فارون يونج» يولي مشاعرها أدنى اهتمام، ولا الفراشة التي تتطاير فوق المَجْلى. لم تعرف عن يقين أي أفكار دارت في بال «روبرت كينكيد».

قام واقفًا، وعلق إحدى الحقيبتين على كتفه اليسرى، ووضع الأخرى فوق مبرده النقال. التفت حول المائدة. تحركت يده نحوها فتناولتها بيدها.

ـ شكرًا على الأمسية، والعشاء، والتمشية. كل ذلك كان في غاية اللطف. أنتِ إنسانة طيبة، يا «فرانشيسكا». اتركي البراندي في صدارة الخزانة، فربما يتبين أنه مفيد بعد فترة.

لقد أدرك، تمامًا كما جال بخاطرها، غير أنها لم تشعر بأي إساءة من كلامه هذا. كان يتحدث عن عيش حالة رومانسية، وكانت نواياه طيبة كأفضل ما يكون. عرفت هذا من رقة لغته ومن طريقة نطقه للكلمات. لكن ما لم تعرفه أنه أراد أن يصيح بأعلى صوته في جدران المطبخ، حافرًا كلماته في الجبس: «بحق الله يا «ريتشارد جونسن»، هل أنت أحمق بالدرجة التي أظنها؟».

تبعته إلى الخارج حتى شاحنته ووقفت جانبًا بينما كان يُنظم معداته. أتى الكلب عابرًا الفناء، وأخذ يتشمم من حول الشاحنة. همست له بصوت حاد:

ـ «جاك»، تعالَ هنا.

فتحرَّك الكلب ليجلس إلى جانبها، لاهثًا.

قال لها، واقفًا إلى جانب باب الشاحنة ليتطلع إليها للحظة، مباشرةً:

ـ مع السلامة، انتبهي لنفسك.

ثم، بحركة واحدة، صار وراء عجلة القيادة، مغلقًا الباب من ورائه. أدار المحرك القديم، وضغط على دواسة البنزين، فأصدر المحرك صوت قعقعة حتى دار. مال خارج النافذة، مبتسمًا ابتسامة عريضة، وقال:

ـ يلزمها إصلاح، على ما أظن.

قبض على المقود، وتراجع قليلًا بالشاحنة، وبدل الاتجاه مرة أخرى، وعبر الفناء تحت الضوء. وقُبيل أن يبلغ ظلام الممر المؤدي إلى المنزل مباشرةً أخرج يده اليسرى من النافذة ولوَّح لها. لوَّحت له هي الأخرى، مع أنها كانت تعرف أنه لا يستطيع رؤيتها.

بينما راحت الشاحنة تبتعد على طول الممر، هرولت وراءها قليلًا وتوقفت في الظلام، تراقب الأضواء الحمراء تعلو وتهبط مع مطبات السكة. انحرف «روبرت كينكيد» جهة اليسار على الطريق الرئيسي المؤدي إلى ونترست، بينما كان برق خاطف بلا هزيم رعد يقطع سماء الصيف و«جاك» الكلب يتجه متثاقلًا صوب الرواق الخلفي للمنزل.

بعد أن غادر، وقفت «فرانشيسكا» أمام مرآة منضدة الزينة، عارية. امتلأت فخذاها بقدر هين للغاية بسبب الحمل والولادة، لكن ثدييها لم يزالا لطيفين صلبين، لا أكبر من اللازم ولا أصغر من اللازم، بطنها يميل لاستدارة طفيفة. ما كان بوسعها رؤية ساقيها في المرآة، غير أنها عرفت أنهما لا تزالان جميلتين. ينبغي عليها أن تزيل شعرهما بانتظام أكثر، لكن كان ذلك يبدو بلا طائل كبير.

لم يكن «ريتشارد» يبدي اهتمامًا للجنس إلا لمامًا، مرة كل شهرين أو ثلاثة، لكن الأمر كان ينتهي أسرع من اللازم، ويتسم بالبدائية ولا يكاد يحرك فيها ساكنًا، ولم يبدُ أنه يهتم كثيرًا بشأن عطرها أو إزالة شعر ساقيها أو أيٍّ من تلك الأمور. لذلك كان من السهل أن تتراخى في الاعتناء بنفسها.

كانت بالنسبة إليه شريكة في مشروع أكثر من أي شيءٍ آخر، وثمة جانب فيها قدَّر ذلك. ومع ذلك فثمة حفيف امرأة أخرى في داخلها، تريد أن تستحم وتتعطَّر... وأن تؤخذ، أن تنجرف، أن تنزع قشرتَها الخارجية قوةٌ يمكنها أن تحس بها، لا أن تصوغها أبدًا، ولا حتى على نحو مبهم في عقلها.

ارتدت ثيابها من جديد وجلست إلى طاولة المطبخ تكتب على نصف صفحة من ورق غير مسطَّر. تبعها «جاك» إلى الخارج حتى السيارة «الفورد» نصف النقل وقفز داخلًا فيها بمجرد أن فتحت الباب، وتوجه إلى المقعد المجاور لمقعد السائق وأخرج رأسه من النافذة بينما تراجعت بالشاحنة خارج سقيفة المعدات،

تطلّع إليها، ثم عاد للنظر من النافذة من جديد بينما قادت السيارة على طول الزقاق وانحرفت يمينًا لتأخذ الطريق الزراعي.

كان جسر «روزمان» مظلمًا. لكن «جاك» وثب نازلًا من قبلها، متفقدًا الأمور في المكان بينما أخذت هي من السيارة كشافًا ضوئيًّا. ثبتت الرسالة القصيرة على الجانب الأيسر من مدخل الجسر وعادت إلى البيت.

جسور يوم الثلاثاء

قبل الفجر بساعة، مر «روبرت كينكيد» بسيارته على صندوق بريد منزل «ريتشارد جونسن»، وهو يأخذ بالتناوب قضمة من شوكولاتة «ميلكي واي» وقضمة من تفاحة، ضاغطًا كوب

القهوة على المقعد بين فخذيه لكيلا يميل وينسكب. وبينما يمر تطلع ناظرًا نحو المنزل الأبيض المنتصب تحت ضوء خفيف لقمر آخر الليل وهز رأسه لحماقة الرجال، بعض الرجال، معظم الرجال. يمكن لأولئك الرجال على الأقل أن يشربوا البراندي وألا يجعلوا الباب السلك يرتطم عند خروجهم.

سمعت «فرانشيسكا» الصوت النشاز للشاحنة وهي تمر. كانت راقدة في الفراش، نامت عارية للمرة الأولى وفق ما أمكنها أن تعود بالذكريات إلى الوراء. تخيلت «كينكيد»، وشعره يتطاير في الريح التي تهب مدوِّمة من نافذة الشاحنة، وإحدى يديه على عجلة القيادة وبالأخرى يمسك بسيجارته «الكاميل».

ظلت تتسمع بينما كان صوت عجلاته يتلاشى نحو جسر «روزمان». وشرعت تُقلب في عقلها كلمات من قصيدة «بيتس»:

خرجتُ إلى غابة البندق

لأن رأسي كان متقدًا...

كان ترديدها للقصيدة يتأرجح ما بين صوت المعلمة وصوت المتوسلة.

أوقف الشاحنة بعيدًا بمسافة كافية عن الجسر بحيث لا يعترض وجودها تكويناته العامة عند التقاط الصور. من المساحة الصغيرة وراء المقعد، تناول حذاء مطاطيًّا طويل الساق، وجلس على

مرقاة باب الشاحنة ليحل رباط حذائه الجلدي ويرتدي الآخر. إحدى الحقيبتين على ظهره وحزامها على كلتا كتفيه، وحامل الكاميرا ثلاثي القوائم يتدلى من كتفه اليسرى من حزامه الجلدي، والحقيبة الأخرى في يده اليمنى، وهكذا شق طريقه نازلًا على الضفة حادة الانحدار نحو مجرى النُّهَير.

كانت الحيلة التي خطرت له أن يضع الجسر في زاوية ما، لكي يحقق شيئًا من التوتر في التكوين العام للصورة، وفي الوقت نفسه أن يلتقط شيئًا يسيرًا من ماء النُّهير، وأن يُضيع الكتابات والرسوم التي على الجدران بالقرب من المدخل. كانت أسلاك التلفون في الخلفية مشكلة أخرى، غير أنه يستطيع التغلب عليها من خلال الحرص على الإطار المضبوط.

أخرج الكاميرا «النيكون» المزودة بفيلم «كوداكروم» وثبتها على الحامل الثقيل. كانت في الكاميرا عدسات ٢٤ ملِّيمترًا فاستبدل بها عدسات الـ١٠٥ ملِّيمترات وهي المفضلة لديه. ثمة ضوء رمادي في الشرق الآن، فشرع يُجري تجاربه على تكوين الصور. حرك حامل الكاميرا ثلاثي القوائم بمقدار قدمين جهة اليسار، وأعاد ضبط القوائم بغرسها في الأرض الموحلة جانب النُّهير. احتفظ بحزام الكاميرا ملفوفًا حول معصمه الأيسر، وهو فِعل طالما حرص عليه كلما كان يعمل بالقرب من مياه، فكم رأى كثيرًا من آلات تصوير تمضي بها تيارات الماء عندما يميل بها الحامل فتسقط.

أخذَ اللون الأحمر يصعد، والسماء تُشرق. يخفِّض الكاميرا بمقدار ست بوصات، يضبط وضع قوائم الحامل. ليس كما يريد بعد.

مسافة قدم أخرى جهة اليسار. يضبط القوائم من جديد. يوجه الكاميرا على رأس الحامل. يضبط فتحة العدسات على ٨، يقدِّر عمق المجال في الخلفية، يزيد منه حتى أقصى حد ممكن عبر تقنية المسافة فائقة البؤرة. يثبت كابل الالتقاط على زر حاجب العدسة. الشمس فوق الأفق بزاوية ٤٠ درجة، يتخذ الطلاء القديم على الجسر لونًا أحمر دافئًا، أي ما أراده تمامًا.

يُخرج مقياس الضوء من جيبه الأيسر على الصدر. يتفقد الضوء على فتحة عدسات بمقدار ٨، تَعرُّض للضوء بمقدار ثانية واحدة، لكن أفلام «الكوداكروم» سوف تصمد جيدًا لذلك التحدي الشديد. ينظر عبر شاشة تعيين المَنظر، يضبط بدقة درجة توجيه الكاميرا. يدفع المكبس الصغير لحاجب العَدسة وينتظر أن تمرَّ الثانية.

في اللحظة نفسها التي أطلق فيها حاجب العدسة، جذب نظره شيءٌ ما. تطلع عبر شاشة تعيين المنظر مجددًا. دمدم محدثًا نفسه: «بحق الجحيم، ما هذا المثبَّت على مدخل الجسر؟ قطعة ورق. لم تكن هناك يوم أمس».

حامل الكاميرا ثابت. ركضَ صاعدًا ضفة النُّهير والشمس تبزغ بسرعة من خلفه. كانت ورقة مثبتة بعناية على الجسر، نزعها ووضع دبوس التثبيت والورقة في جيب صدريته. عاد نحو الضفة، نزل، وقف خلف الكاميرا. الشمس بارتفاع ٦٠ درجة.

كان يلهث بسبب هذا الركض. التقط من جديد. كرر كل لقطة مرتين ليحصل على نسخٍ مطابقة. لا ريح، والعشب ساكن. أخذ

ثلاث لقطات بسرعة ثانيتين وثلاث لقطات بسرعة ثانية ونصف، فقط لكي يطمئن قلبه.

يضبط العدسات على ١٦. يكرر الإجراء بكامله. يحمل الحامل الثلاثي والكاميرا إلى وسط النُّهير. ينصبهما، ينمحي أثر خطواته في الطمي من خلفه. يلتقط مرة أخرى صورًا بالترتيب السابق نفسه. يُركب فيلم «كوداكروم» جديدًا. يغير العدسات. يثبت على عدسة الـ٢٤ ملِّيمترًا، ويدس عدسة الـ١٠٥ في جيبه. يدنو من الجسر وهو يخوض عكس تيار المياه. يضبط، يوجِّه، يتفقد الضوء، يأخذ ثلاث لقطات، ولقطات أخرى بأوضاع ضبط مختلفة احتياطًا.

يقلب الكاميرا إلى الوضع الرأسي، ويعيد تشكيل تكوين الصورة. يلتقط مرة أخرى، بالترتيب نفسه، والمنهجية نفسها. لم يشب حركاته أي ارتباك قطُّ. كلها قد تمرن عليها، كلها لها أسبابها، والأحداث الطارئة محسوب حسابها، بمنتهى الكفاءة والحرفية.

يصعد الضفة، يعبر الجسر، يركض مع المعدات، يسابق الشمس. الآن المهمة الصعبة. يأخذ كاميرا ثانية مع فيلم أسرع، يُلقي كلتا الكاميراتين حول رقبته، يتسلق شجرة وراء الجسر. يكشط ذراعه في لحاء الشجرة ـ «اللعنة!» ـ يواصل التسلق. في موضع مرتفع الآن، ينظر إلى أسفل نحو الجسر مِن زاوية ينعكس معها ضوء الشمس على ماء النُّهير.

يستخدم مقياس شدة الضوء في نقاط محددة ليعزل سقف الجسر، ثم الجانب المظلل منه. يوجه مقياس الضوء نحو سطح الماء.

يضبط الكاميرا على وضع تسوية. يأخذ تسع لقطات، ولقطات أخرى بأوضاع ضبط مختلفة، والكاميرا مستندة على صدريته المحشورة في زاوية بين غصنين من الشجرة. يبدل الكاميرات. فيلم أسرع. يأخذ اثنتي عشرة لقطة أخرى.

ينزل عن الشجرة. ينزل إلى الضفة. يثبت الحامل، يزود الكاميرا بفيلم جديد، يلتقط تكوينًا مماثلًا للمجموعة الأولى مع فارق وحيد أنه من الجانب الآخر للنُّهير. يُخرج كاميرا ثالثة من الحقيبة. كاميرا «إس بي» القديمة، المزودة بمُقدِّر للمدى. يعمل بالأبيض والأسود الآن. الضوء على الجسر يتغير من ثانية إلى أخرى.

بعد عشرين دقيقة مجهدة من النوع الذي لا يعرفه سوى الجنود والجراحين ومصوري الفوتوغرافيا، ألقى «روبرت كينكيد» بحقائبه في الشاحنة واتجه عائدًا من الطريق نفسه الذي أتى منه قبل ذلك. كان على مسافة ربع ساعة من جسر «هوجباك» شمال غرب البلدة، وإذا أسرع بالذهاب فلعله يستطيع أن يأخذ له بعض اللقطات.

غبار متطاير، سيجارة مشتعلة، الشاحنة تعلو وتهبط، يمر بمنزل المزرعة الأبيض مواجهًا الشمال، يمر بصندوق بريد «ريتشارد جونسن». لا أثر لها. وماذا كنت تتوقع؟ إنها متزوجة، ولا بأس بحالها. وأنت أيضًا لا بأس بحالك. مَن يحتاج إلى تلك التعقيدات؟ أمسية لطيفة، عشاء لطيف، امرأة لطيفة. ولتنتهِ الحكاية عند هذا الحد. لكن يا الله، لكم هي جميلة، وأيضًا ثمة شيء ما فيها. شيء ما. وكم كان عسيرًا عليَّ أن أرفع عينيَّ عنها.

كانت «فرانشيسكا» في الحظيرة تؤدي واجباتها عندما مرَّ بمنزلها بسرعة خاطفة. غطَّت ضجة الماشية على أي صوت قد يصل من الطريق. واتجه «روبرت كينكيد» إلى جسر «هوجباك»، مسابقًا السنوات، مطاردًا الضوء.

سارت الأمور على خير حال عند الجسر الثاني. كان الجسر ينهض وسط وادٍ ولا يزال بعض الضباب يصعد من حوله عندما بلغه. أتاحت له العدسات ذات الثلاثمائة ملِّيمتر شمسًا كبيرة في الجزء العلوي على اليسار من إطار صوره، وبقيته يشغله الجسر نفسه والطريق الحجري الأبيض الملتوي المؤدي إليه.

في تلك اللحظة ظهر في الشاشة الصغيرة التي تُقدر المدى فلاح يقود فريق خيول بلجيكية لونها بني فاتح تجر عربة على طول الطريق الأبيض. إنه واحد من آخر فتية الطراز القديم، هكذا فكر «كينكيد» وهو يبتسم. كان يعرف عندما تواتيه مصادفات طيبة، ويمكنه بينما يعمل أن يرى كيف ستبدو الصورة النهائية وهي مطبوعة. في اللقطات الرأسية ترك مساحة للسماء حيث يمكن إضافة عنوان ما.

اعتراه شعور طيب عندما طوى قوائم حامل الكاميرا في الثامنة وخمس وثلاثين دقيقة. لا بد أن من بين عمل هذا النهار بعض الصور سيتم الاحتفاظ بها. مواد ريفية وذات طبيعة محافظة، لكنها لطيفة ومضمونة. وربما اختاروا لقطة الفلاح والخيول لتكون صورة الغلاف؛ لذلك فقد ترك مساحةً في الجزء الأعلى من الإطار، مساحة لإضافة نص ما، أو شعار المجلة. يحب

المحررون هذا النوع من الاحترافية المدروسة. لهذا السبب كان «روبرت كينكيد» يكلَّف بمهام.

كان قد أتى على سبعة أفلام، كلها أو معظمها، وأفرغ الكاميرات الثلاث، ودسَّ يده في الجيب السفلي على يسار صدريته ليتناول الأفلام الأربعة الأخرى. «اللعنة!» وخز دبوس التثبيت سبابته. نسي أنه أسقطه في جيبه عندما نزع قطعة الورق عن جسر «روزمان». بل كان نسي في الحقيقة مسألة هذه الورقة تمامًا. استخرج الورقة من جيبه بحرص، فتحها وقرأها:

إذا رغبت في تناول العشاء مرة أخرى عندما «تطفو الفراشات البيضاء على أجنحتها»، فلتمر الليلة بعد أن تنتهي من عملك. في أي وقت يناسبك.

لم يستطع منع ابتسامة صغيرة، وهو يتخيل «فرانشيسكا جونسن» مع رسالتها ودبوس التثبيت تقود شاحنتها عبر الظلام حتى الجسر. في غضون خمس دقائق كان قد عاد إلى وسط البلدة. بينما كان عامل محطة بنزين «تكساكو» يملأ له خزان الوقود ويتفقد مستوى الزيت («أقل من ثُمن جالون»)، استخدم «كينكيد» هاتف عملة في المحطة. كان الدليل الصغير للهاتف متسخًا من فرط ما قلَّبت صفحاته أيدي العابرين في محطة الوقود. وجدَ رقمين مدرجين تحت اسم «ر. جونسُن»، ولكن أحدهما كان عنوانه في المدينة.

اتصل بالرقم الريفي وانتظر. كانت «فرانشيسكا» تُطعم الكلب على الشرفة الخلفية عندما دقَّ جرس الهاتف في المطبخ. التقطت

السماعة مع بداية الرنين الثاني:

ـ بيت «آل جونسن».

ـ مرحبًا، أنا «روبرت كينكيد».

وثب جوفها مجددًا، تمامًا كما حدث يوم أمس. طعنة صغيرة بشيء ما، بدأت في صدرها ثم أوغلت حتى معدتها.

ـ وصلتني رسالتك. مع ساعي البريد السيد «و.ب. بيتس» وكل ذلك. وأنا أقبل الدعوة، ولكن قد يكون الوقت متأخرًا. الطقس مُواتٍ جدًّا، لذا أخطط لأن ألتقط صورًا للجسر... انتظري لأرى، ماذا يُسمَّى؟ جسر «السيدار»... هذا المساء. فربما لا أنتهي إلا بعد التاسعة مساء، وبعد ذلك سأود أن أغتسل قليلًا. وهكذا فربما لا أستطيع القدوم حتى التاسعة والنصف أو العاشرة. فهل سيكون هذا مناسبًا؟

كلَّا، ما كان مناسبًا بالمرة. لم تكن تريد أن تنتظر وقتًا طويلًا هكذا. لكنها فقط قالت:

ـ آه، طبعًا. أنجز عملك؛ فذلك هو الأهم. سوف أعد شيئًا يسهل تسخينه عندما تصل إلى هنا.

حينئذٍ أضاف:

ـ إذا أردتِ أن تأتي معي بينما أعمل فلا بأس، لن يضايقني هذا. يمكنني أن أمر بكِ في نحو الخامسة والنصف.

أخذ عقل «فرانشيسكا» يعالج هذه المسألة. أرادت أن تذهب معه، ولكن ماذا لو رآها أحد؟ ماذا عساها أن تقول لـ«ريتشارد» لو عرف بالأمر؟

كان جسر «سيدار» أعلى النُّهير يبعد عن الطريق الجديد مسافة خمسين ياردة، متوازيًا معه ومع جسره الإسمنتي. لن تكون هناك واضحة للعيان أكثر مما يجب. أم أنها قد تُرى؟ قررت في أقل من ثانيتين.

ـ نعم، أود ذلك. لكني سأقود شاحنتي وألتقيك هناك. في أي ساعة؟

ـ السادسة تقريبًا. سوف أراكِ عندها. اتفقنا؟ سلامًا.

أمضى بقية النهار في مكتب الجريدة المحلية يتصفَّح أعدادًا قديمة. كانت بلدة جميلة، ذات ساحة لطيفة تشرف عليها دار القضاء، وجلس هناك في الساحة على مقعد خشبي في الظل ساعة الغداء ومعه كيس فواكه صغير وبعض الخبز، إلى جانب مشروب كوكا من مقهى على الناحية الأخرى من الشارع.

كان الوقت بعد الظهر بقليل حينما دخل المقهى وطلب مشروب كوكا ليأخذه معه، وكما يحدث في حانات الغرب المتوحش القديم عندما يظهر المسلح المحلي، توقف للحظة كل الحديث النشط بينما تطلع إليه جميع الجالسين. كان يكره ذلك، ويحس بالارتباك؛ غير أن هذا كان هو الحال المعهود في البلدات الصغيرة. شخص جديد! شخص مختلف! مَن يكون؟ ماذا يفعل هنا؟

ـ قيل إنه مصور فوتوغرافي. قيل إنهم رأوه عند جسر «هوجباك» هذا الصباح ومعه كاميرات من جميع الأنواع.

ـ العلامة المطبوعة على شاحنته تقول إنه من واشنطن، من الغرب البعيد.

ـ وكان في مكتب الجريدة طيلة النهار. يقول «جيم» إنه كان يتصفَّح الجرائد بحثًا عن معلومات حول الجسور المغطَّاة.

ـ صحيح، «فيشر» الصغير في محطة البنزين قال إنه توقف بهم يوم أمس وسأل عن الاتجاهات إلى جميع الجسور المغطاة.

ـ وما السبب يعني وراء كل هذا الاهتمام بتلك الجسور؟

ـ ولماذا يا تُرى قد يرغب أي إنسان في أن يأخذ لها صورًا؟ إنها جميعًا آيلة للسقوط وفي أسوأ حال ممكن.

ـ طبيعي أن يترك شعره طويلًا. يبدو أنه من الجماعة أتباع الخنافس، أو بماذا يسمون بعضهم الآخر؟ «هيبيز»، صحيح؟

أثار ذلك ضحكًا في المقصورة الخلفية وتجاوزها حتى المنضدة المجاورة لها.

أخذ «كينكيد» مشروب الكوكا وغادر، وظلت الأعين معلقة به بينما خرج من الباب. ربما يكون قد أخطأ بدعوة «فرانشيسكا». من أجلها، لا من أجله هو. إذا رآها أحد معه عند جسر «سيدار»، فإن النبأ سوف يضرب المقهى على الإفطار في

الصباح التالي، وسوف يتكفل «فيشر الصغير» بإعادة بثه في محطة «تكساكو» بعد أن يتسلمه من شخص عابر. بل على الأرجح أسرع من ذلك.

لقد تعلم ألا يستهين أبدًا بقدرة الأخبار التافهة على التنقل بسرعة البرق في البلدات الصغيرة. قد يكون هناك مليونا طفل يموتون جوعًا في السودان، لكن هذا النبأ لا يكاد يترك أثرًا في وعيهم. أما إذا شوهدت زوجة «ريتشارد جونسن» مع غريب طويل الشعر، فذلك هو النبأ الآن حقًّا! النبأ الذي سوف يُتداول، النبأ الذي سوف يُلاك مرةً بعد أخرى، النبأ الذي سوف يخلف في عقول سامعيه رجفة شهوة غامضة، ولعلها الرجفة الوحيدة من ذلك النوع التي تنتابهم طوال عامهم هذا.

انتهى من تناول غدائه وسار حتى الهاتف العمومي في موقف سيارات دار القضاء وطلب رقمها. أجابت مع الرنين الثالث، وهي تلهث بدرجة خفيفة.

ـ مرحبًا، «روبرت كينكيد» مرة ثانية.

انقبضَت معدتها على الفور إذ فكرت أنه لن يستطيع الحضور، وقد اتصل ليبلغها بذلك.

ـ اسمحي لي أن أدخل في الموضوع مباشرة. إذا كان مجيئكِ معي الليلة سوف يتسبب في مشكلة لكِ، نظرًا لفضول سكان البلدات الصغيرة، فلا تشعري بأي ضغط للمجيء. بصراحة، أنا لا أهتم بالمرة بما يظنونه عني هنا، وعلى كل حال سوف أمر بكِ

فيما بعد. ما أحاول قوله إنني ربما ارتكبت خطأ بدعوتكِ، لهذا لا تشعري بأنكِ مضطرة للحضور على أي نحو. مع أنني أحب كثيرًا أن تأتي معي.

منذ أن تحدثا على الهاتف في المرة السابقة كانت تفكر في ذلك الأمر بالتحديد. لكنها حسمت قرارها.

ـ كلَّا، أود حقًّا أن أراك بينما تعمل. لا يقلقني الكلام.

وكانت قلقة، لكن شيئًا ما فيها قد أمسك بالزمام، شيء تربطه صلة بالمجازفة. سوف تذهب إلى جسر «سيدار»، مهما كان الثمن.

ـ عظيم. فكرت أن أتأكد منكِ فقط. أراكِ بعد قليل.

ـ اتفقنا.

كان شخصًا حساسًا، لكنها كانت تعرف ذلك عنه بالفعل.

في الرابعة مساء مرَّ بالنُّزل الذي يقيم فيه وغسل بعض الثياب في حوض الحمَّام، وارتدى قميصًا نظيفًا وألقى بقميص ثانٍ في الشاحنة، جنبًا إلى جنب سروال كاكي وصندل بُني كان قد ابتاعه وهو في الهند عام ١٩٦٢ بينما ينجز قصة عن السكة الحديدية الصغيرة الصاعدة إلى دارجيلنغ. اشترى من إحدى الحانات صندوقَي بيرة «بادوايزر» في كل صندوق ست زجاجات، وضع ثماني منها فقط، وهو ما استطاع أن يجد له مكانًا، في المبرد من حول أفلام التصوير.

الجو حار، حار جدًّا من جديد. شمس أيوا في آخر الأصيل تكدست فوق ما أحدثته من ضرر سابق، وقد امتص حرارتها الإسمنت والطوب والأرض. وأخذت توزع حرارتها بالعدل في هبوطها جهة الغرب.

كانت الحانة معتمة وجوُّها لطيفًا بدرجة معقولة، وقد تركوا بابها الأمامي مفتوحًا ومراوح ضخمة معلقة في السقف وأخرى منتصبة على حامل بجوار الباب تحدث طنينًا بقوة مائة وخمسة دسيبل تقريبًا. ومع ذلك، وعلى نحو ما فإن ضجة المراوح، ورائحة البيرة الآسنة والدخان، ودوي «الجوك بوكس»، والوجوه شبه العدائية المحدقة فيه على امتداد البار، جعلت الجو يبدو أكثر حرارة مما هو عليه حقًّا.

على الطريق بالخارج كان ضوء الشمس يكاد يكون لاسعًا، واستحضر هو الشلالات وأشجار التنوب والنسيم العليل على امتداد مضيق «سان خوان دي فوكا»، بالقرب من رأس «كيداكا».

وعلى الرغم من هذا القيظ، بدت «فرانشيسكا جونسن» منتعشة. كانت تستند على رفرف عجلة شاحنتها «الفورد» حيث أوقفتها وراء بعض الأشجار بالقرب من الجسر. كانت مرتدية سروال الجينز نفسه المضبوط عليها تمامًا، والصندل، وتيشيرتًا قطنيًّا أبيض فعل بجسدها أمورًا لطيفة. لوَّح لها بينما أوقف سيارته إلى جانب شاحنتها.

قال:

ـ مرحبًا. جميل أن أراكِ. يا لسخونة الجو.

كلام بريء، كلام يبقى على السطح ولا يقترب من الأعماق. ذلك الارتباك القديم مرة أخرى، بمجرد أن يكون في حضرة امرأة شعر نحوها بشيء ما. لم يعرف قَطُّ ماذا عساه أن يقول بالضبط، ما لم يكن الحديث جادًّا. وعلى الرغم من أن حس الدعابة لديه متطور بقدر جيد، وإن كان يتسم بشيء من الغرابة، فهو بالأساس يملك عقلًا جادًّا ويتعامل مع الأمور بطريقة جادة. قالت أمه دائمًا إنه كان راشدًا عاقلًا منذ أن كان في الرابعة من عمره. وقد ساعده هذا مهنيًّا بشدة. لكن في رأيه الخاص، لم يساعده هذا بشدة عندما يكون بالقرب من نساء مثل «فرانشيسكا جونسن».

ـ أردت أن أشاهدك وأنت تصنع الصور. «تلتقطها»، بحسب تعبيرك.

ـ طيب، أنتِ على وشك أن تشاهدي، وسوف تكتشفين أنه أمر ممل، أو على الأقل هذا ما يكتشفه الآخرون عمومًا. لا يشبه هذا الاستماع إلى شخص يتمرن على البيانو، حيث يمكنكِ أن تكوني جزءًا من الحالة. في الفوتوغرافيا، الإنتاج والعرض منفصلان بمدة زمنية طويلة. فأنا اليوم في مرحلة الإنتاج، وحينما تظهر الصور في مكانٍ ما، فذلك هو العرض. وكل ما يمكنكِ أن تشاهديه هو كثير من حركة تبدو بلا هدف. لكن أهلًا وسهلًا بكِ. في الحقيقة، يسعدني أنكِ أتيتِ.

تعلقت بتلك الكلمات القليلة الأخيرة. لم يكن مضطرًّا لأن يقولها. كان يمكنه الاكتفاء بعبارة «أهلًا وسهلًا بكِ»، لكنه لم يكتفِ بها.

لقد كان سعيدًا حقًّا برؤيتها؛ كان ذلك واضحًا. تمنت أن تكون حقيقة وجودها هنا تعني له نفس ما تعنيه لها.

سألته بينما يضع قدميه في حذائه المطاطي طويل الساق:

ـ أيمكنني أن أساعدك بأي طريقة؟

ـ يمكنكِ أن تحملي تلك الحقيبة الزرقاء. أنا سآخذ الأخرى الحنطية وحامل الكاميرا.

وهكذا أصبحت «فرانشيسكا» مساعد مصور فوتوغرافي. تبين أنه كان مخطئًا، فقد كان هناك كثير يستحق المشاهدة. **كان** هناك عرض من نوع ما، وإن لم ينتبه إلى ذلك. كان هذا ما لاحظته في اليوم السابق، وجزء مما جذبها نحوه. رشاقته، سرعة عينيه، وعضلات ساعديه في حال العمل. وبالأساس الطريقة التي يحرك بها جسده. بدا الرجال الذين تعرفهم ثقيلي الحركة مقارنة به.

لم يكن معنى ذلك أنه سريع الحركة. في الحقيقة، لم يكن يتعجل على الإطلاق. كان له طابع أقرب إلى الظباء، مع أنها واثقة أنه قوي بطريقة مرنة. ربما كان أقرب إلى فهد منه إلى ظبي. نعم. فهد، ذلك هو. كلَّا، لم يكن فريسة. بل على العكس تمامًا، هكذا أحست.

ـ «فرانشيسكا»، ناوليني الكاميرا ذات الشريط الأزرق، من فضلك.

فتحت حقيبة الظهر، يساورها شعور بحذر مفرط حيال تلك الأداة باهظة الثمن التي يتعامل هو معها باعتياد، أخرجت الكاميرا. كانت كلمة «نيكون» مكتوبة على طبقة طلاء الكروم الخاصة بمُعيِّن المنظر، مع حرف «ف» أعلى يسار الاسم.

كان راكعًا على ركبتيه شمال شرق الجسر، وقد أبقى حامل الكاميرا منخفضًا. بسط لها يده اليسرى من غير أن يحول عينه عن شاشة مُعيِّن المنظر، فناولته الكاميرا، وهي تراقب يده تقترب من العدسة بمجرد أن أحس بها تلمسه. أدار المكبس الصغير في طرف السلك الذي كانت قد رأته أمس يتدلى من صِداره. طقطق حاجب العدسة. ضغط هو حاجب العدسة فطقطق مرة أخرى.

مدَّ يده تحت رأس الحامل الثلاثي وحلَّ عنه الكاميرا، ووضع مكانها الأخرى التي أعطته إياها. بينما كان يثبت الكاميرا الجديدة التفت برأسه نحوها وابتسم.

ـ شكرًا، أنتِ مساعدة من الطراز الأول.

انتابها شيء من الخجل.

ربَّاه، ما هذا الشيء فيه؟! كان مثل كائن ينتمي إلى النجوم، سافر في الفضاء، منجرفًا على ذيل مذنب ألقى به عند طرف الممر المؤدي إلى بيتها. فكرت: لماذا لا يمكنني أن أرد ببساطة قائلة: «على الرحب»؟ أشعر بالقرب منه كأنني بطيئة قليلًا، لكن هذا ليس بسبب شيء يفعله، بل أنا السبب، وليس هو. أنا فقط غير

معتادة على الوجود مع أشخاص تعمل عقولهم بسرعة عقله نفسها.

عبرَ الجدول خائضًا في تياره، ثم صعد نحو الضفة الأخرى. سارت عبر الجسر مع الحقيبة الزرقاء ولبثت واقفة خلفه، وهي سعيدة، سعيدة على نحو غريب. كان ثمة طاقة هنا، قوة من نوع ما في طريقة عمله. لم يكن يكتفي بأن ينتظر الطبيعة، بل كان يهيمن عليها بطريقة رقيقة، يشكلها وفقًا لرؤيته، يجعلها تتوافق مع ما يرى في عقله.

فرض إرادته على المشهد، واجه التغيرات في الضوء بعدسات مختلفة، وأفلام مختلفة، وفلتر بين حين وآخر. لم يكن يكتفي بالدفاع، بل يسود، متسلحًا بالمهارة والذكاء. الفلاحون أيضًا يسودون على الأرض بالمواد الكيماوية والجرارات، غير أن طريقة «روبرت كينكيد» في تغيير الطبيعة كانت مرنة، تترك الأشياء على الدوام كما هي في حالتها الأصلية بعد أن يتم عمله.

نظرت إلى سرواله الجينز الذي ينسحب محبوكًا حول عضلات فخذيه كلما انحنى هو. نظرت إلى قميصه «الدنيم» حائل اللون الملتصق بظهره، إلى شعره الرمادي المتدلي على ياقة القميص. نظرت كيف يقعد مقرفصًا للوراء على كَفَليه من أجل تعديل أداة ما، وللمرة الأولى منذ وقت طويل للغاية بدأت تشعر ببلل بين فخذيها لمجرد مشاهدة شخص ما. عندما أحست بذلك، تطلعت نحو السماء المسائية وتنفست عميقًا، وأنصتت إليه وهو يسب بصوت خفيض الفلتر المحشور فلا ينفك عن العدسة.

عبرَ الجدول من جديد، عائدًا إلى حيث الشاحنتين، مخضخضًا في المياه بحذائه المطاطي طويل الساق. ذهبت «فرانشيسكا» إلى داخل الجسر المغطى، وعندما خرجت من طرفه الآخر ألفته مقعيًا ومصوبًا الكاميرا نحوها. ضغط، فطقطق حاجب العدسة، وضغط مرة ثانية وثالثة بينما كانت تسير نحوه على طول الطريق. أحست بنفسها ترسم ابتسامة في ارتباك خفيف.

خاطبها مبتسمًا:

ـ لا تقلقي، فلن أستخدم تلك الصور في أي مكان من غير إذن منكِ. لقد أنهيت مهمتي هنا. أظن أنني سوف أمر بالنُّزل وأغتسل كيفما اتفق قبل أن أخرج.

قالت بهدوء وجدية:

ـ طيب، يمكنك هذا إذا أردت. لكني أستطيع أن أوفر لك منشفة أو حوض استحمام أو الطلمبة أو أيًّا كان.

ـ لا بأس، أنا موافق. اسبقيني أنتِ. سوف أشحن الأدوات في «هاري» ـ هذا هو اسم سيارتي ـ وألحق بكِ فورًا.

رجعت إلى خلف، خارج الأشجار، بسيارة «ريتشارد» «الفورد» الجديدة، وصعدت بها حتى الطريق الرئيسي بعيدًا عن الجسر، واتجهت يمينًا، ثم نحو ونترست، حيث اتخذت اتجاه الجنوب الغربي إلى البيت. كان الغبار كثيفًا للغاية فلم تستطع أن ترى ما إذا كان هو يتبعها مباشرة أم لا، على الرغم من أنها لمرة

واحدة، وعند المرور بمنعطف، ظنت أنها استطاعت رؤية أنواره على مسافة ميل، وهو يقعقع مقتربًا في شاحنته التي يدعوها «هاري».

لا بد أنه كان هو، لأنها سمعت شاحنته تصعد الزقاق بعد أن وصلت هي إلى البيت مباشرة. نبح «جاك» في البداية ولكنه استقر على الفور، مغمغمًا في نفسه: «إنه رجل ليلة أمس نفسه؛ لا مشكلة، على ما أظن». توقف «كينكيد» دقيقة يتحدث معه.

خرجت «فرانشيسكا» عبر باب الرواق الخلفي.

ـ استحمام؟

ـ سيكون هذا عظيمًا. أريني الطريق.

أخذته إلى الطابق العلوي حيث الحمَّام الخاص الذي أصرت على «ريتشارد» أن يعده لها وقد أخذ الولدان يكبران. كان ذلك مطلبًا من بين مطالب قليلة اتخذت موقفًا حازمًا لتحقيقها. تحب أن تأخذ حمَّامات طويلة ساخنة في المساء، ولم تكن قادرة على احتمال مراهقَين يقرعان الأبواب ويزعجانها في مساحتها الخاصة. كان «ريتشارد» يستخدم الحمَّام الآخر، قال إنه لا يشعر بالراحة مع كل الأشياء الأنثوية في حمَّامها. كانت كلماته المحددة: «شديد الزينة».

ليس بالوسع الوصول إلى الحمَّام إلا عبر اجتياز غرفة نومهما. فتحت الباب المفضي للحمَّام وأخرجت تشكيلة من المناشف

وفوطة صغيرة للاستحمام من خزانة تحت حوض.

ـ استخدم أي شيء تريده.

ابتسمت بينما تعض شفتها السفلى بخفة.

ـ يمكنني أن أقترض منكِ بعض الشامبو إن كان لديكِ، فالخاص بي في النُّزل.

ـ بالتأكيد. اختر ما تشاء.

وضعت ثلاث قوارير مختلفة على النضد، جميعها مستخدم بعض الشيء.

ـ شكرًا.

ألقى ثيابه النظيفة على الفراش، ولاحظت «فرانشيسكا» أنها سروال كاكي وقميص أبيض وصندل. ما من رجل بين السكان المحليين يرتدي الصنادل. حفنة قليلة منهم، من سكان وسط البلدة، قد بدأوا يرتدون سراويل برمودا القصيرة في مضمار الجولف، لكن ليس الفلاحون. أما الصنادل... فلا أثر لها.

نزلتْ للطابق السفلي وسمعت ماء الدش يتدفق. إنه الآن عارٍ، هكذا جال بخاطرها، وانتابها إحساس غريب في الجزء الأدنى من بطنها.

في وقت مبكر في ذلك اليوم، بعد أن اتصل بها، كانت قد قادت سيارتها مسافة الأربعين ميلًا حتى دي موين وتوجهت إلى محل الخمور الرئيسي في الولاية. لم تكن صاحبة خبرة في هذه الأمور وطلبت مساعدة أحد الموظفين في اختيار نبيذ جيد. لم يكن الرجل أفضل منها إلمامًا بأمور النبيذ، فلم تجد لديه أي عون. أخذت تجول بناظريها بين صفوف الزجاجات إلى أن عثرت على علامة مكتوب عليها «فالبوليتشيلا»، فتذكرت معرفتها لذلك النوع قبل زمن بعيد. إنه نبيذ أحمر إيطالي جاف المذاق. ابتاعت زجاجتين ودورقًا آخر من البراندي، بينما تشعر بأنها امرأة شهوانية ودنيوية.

وبعد ذلك بحثت عن فستان صيفي جديد من متجر في وسط المدينة. عثرت على واحد لونه زهري فاتح بحمالات رفيعة. كانت فتحته عميقة من الخلف، وهكذا أيضًا من الأمام بشكل مثير فيكشف عن أعلى ثدييها، ثم يلتم حول الخصر بزنار ضيق. واشترت صندلًا أبيض جديدًا، غالي الثمن، بكعبين مسطحين، وأشغال يدوية رقيقة على شرائطه.

في ساعة الأصيل حضَّرت فلفلًا محشوًّا، وقد ملأته بمزيج من صلصة الطماطم والأرز البني والجبن والبقدونس المفروم. ثم أتى دور سلطة سبانخ بسيطة، مع خبز الذرة، والحلوى سوفليه صوص التفاح. وضعت ذلك كله في الثلاجة، ما عدا السوفليه.

أسرعت بتقصير فستانها حتى طول الركبة. في وقت سابق من هذا الصيف كانت قد قرأت موضوعًا في مجلة «ريجستر دي موين» يقول إن ذلك كان الطول المفضل هذا العام. لطالما

اعتقدت أن الموضة بما تتضمنه مسائل غريبة للغاية، وأن الناس ينقادون مثل قطيع الشياه خلف توجيهات المصممين الأوروبيين. غير أن طول الفستان لائق بها، وهكذا اختارت ذلك الحد لقص الطرف.

كان النبيذ مشكلة. يحتفظ أهل المنطقة به في الثلاجات، مع أنهم في إيطاليا لا يفعلون ذلك أبدًا. ومع ذلك فقد كان الجو من شدة الحرارة بحيث لا يمكن تركه هكذا على نضد المطبخ. ثم تذكرت مخزن تبريد الألبان واللحوم خارج المنزل، كانت درجة الحرارة هناك نحو ستين في الصيف، وهكذا وضعت النبيذ بجوار الحائط.

توقف صوت المياه بالطابق العلوي في اللحظة نفسها التي دق فيها جرس الهاتف. كان «ريتشارد»، يتصل من إلينوي.

ـ كل شيء تمام؟

ـ نعم.

ـ عِجل «كارولين» سوف يخضع للتحكيم يوم الأربعاء. وهناك بعض الأشياء الأخرى التي نرغب في رؤيتها في اليوم التالي. لذا سنرجع إلى المنزل يوم الجمعة، في وقت متأخر.

ـ لا بأس، اقضوا وقتًا طيبًا وقُد بحرص.

ـ «فراني»، هل أنتِ متأكدة أنكِ بخير؟ كأن هناك شيئًا غريبًا في صوتك.

ـ أبدًا، أنا بخير حال. إنها الحرارة فقط. سوف أصبح أفضل بعد أن آخذ حمَّامًا.

ـ تمام. أبلغي سلامي لـ«جاك».

ـ نعم، سأفعل.

وألقت نظرة على «جاك» الباسط أطرافه على الأرضية الإسمنتية للشرفة الخلفية.

نزل «روبرت كينكيد» إلى الطابق السفلي ودخل المطبخ: قميص أبيض بصف أزرار، بكمين مُشمَّرين حتى ما فوق المرفقين، وسروال كاكي فاتح اللون، وصندل بني، وسوار فضي، وأعلى زرين من القميص مفتوحان، وسلسلة فضية. كان شعره لا يزال رطبًا وقد صففه باعتناء، بفرق في المنتصف. نظرت بإعجاب إلى صندله.

ـ سوف آخذ ثياب العمل إلى الشاحنة وأجلب الأدوات لأنظفها على السريع.

ـ هيَّا اذهب، سوف أذهب لآخذ حمَّامًا.

ـ أتريدين زجاجة بيرة مع حمَّامك؟

ـ إذا كان لديك واحدة إضافية.

أحضر المبرِّد أولًا، وأخرج زجاجة بيرة لها، وفتحها، بينما عثرت هي على كأسين طويلتين سوف تصلحان كقدحين كبيرين. عندما عاد إلى شاحنته من أجل أن يحضر آلات التصوير، أخذت كأسها وصعدت للطابق العلوي، ولاحظت أنه قد نظف حوض الاستحمام جيدًا، ثم فتحت المياه لتأخذ حمَّامًا ساخنًا غزير المياه، مستقرة في الحوض وكأسها على الأرضية بجانبها بينما تزيل الشعر وتصبن جسدها. كان هو موجودًا هنا قبل دقائق معدودة فقط؛ وكانت ممددة في الموضع نفسه الذي سقط فيه الماء على جسده، وقد وجدت ذلك مثيرًا للشهوة بدرجة عارمة. بدأ كل شيء تقريبًا يخص «روبرت كينكيد» يبدو لها مثيرًا للشهوة.

شيء بسيط بساطة كأس بيرة باردة معها في وقت الاستحمام أشعرها بلياقة بالغة. لماذا لا تعيش هي و«ريتشارد» على هذا النحو؟ كانت تعرف أن ذلك يرجع في جزء منه إلى القصور الذاتي لقوة العادة الممتدة. كل الزيجات، وكل العلاقات، عرضة لذلك. مع العادة يأتي التوقع، ويحمل التوقع معه جوانبه المريحة؛ وكانت واعية بذلك أيضًا.

ثم إن هناك المزرعة. مثل شخص عاجز ومتطلِّب، هي تحتاج إلى انتباه لا ينقطع، حتى على الرغم من الاستعاضة الثابتة عن الجهد اليدوي بالآلات وكيف جعلت العمل أقل إنهاكًا عما كان عليه في الماضي.

لكن شيئًا آخر كان يجري هاهنا. توقع ما سيأتي شيء، لكن الخوف من التغيير شيء مختلف. وقد كان «ريتشارد» خائفًا من التغيير، أي نوع من التغيير، في زواجهما. لم يرغب في التحدث

عن ذلك عمومًا، لم يرغب في التحدث عن الجنس خصوصًا. كانت الشهوانية، أمرًا خطرًا على نحو ما، وغير متوافق مع طريقته في التفكير.

لكنه لم يكن الوحيد في ذلك ولم يكن هو مَن يستحق اللوم. فما ذلك السد المنيع الذي ارتفع هنا حائلًا دون الحرية؟ ليس فقط في مزرعتهم، بل في الثقافة الريفية. وربما في الثقافة المدينية، بالقدر نفسه. لماذا ترتفع الجدران والأسيجة لتحول دون تكوين علاقات طبيعية ومنفتحة بين الرجال والنساء؟ ما سبب الافتقار إلى الحميمية، وغياب الشهوانية؟

كانت مجلات النساء تذكر مثل تلك المسائل، وقد بدأت النساء تبني توقعات حول الموضع المخصص لهن داخل المخطط الأشمل للأمور، وحول ما كان يحدث على أَسرَّة غرف نوم حياتهن. كان الرجال من أمثال «ريتشارد» ـ معظم الرجال، كما خمنت ـ يشعرون بالتهديد من تلك التوقعات. بطريقة ما، كانت النساء يتوقعن أن يكون الرجل شاعرًا، وفي الوقت نفسه عاشقًا همامًا جامحًا.

لم ترَ النساء في ذلك أي تناقض، على عكس ما رآه الرجال. كانت غرف تغيير الملابس، والحفلات المقصورة على الرجال، وصالات البلياردو، والتجمعات المعزولة في حياتهم تحدد مجموعة معينة من سمات الذكر لا مكان فيها للشعر، أو لأي شيء ينطوي على الرقة. وبالتالي، إن كانت الشهوانية مسألة رقة، ونوعًا خاصًّا من الفن، كما تعلم «فرانشيسكا»، فلا مكان لها في نسيج حياتهم. وهكذا لا بد أن تتواصل تلك الرقصة الملهية

والبارعة على نحو مريح، والتي تفصل بينهم، بينما تتنهد النساء ويضعن وجوههن في الحائط خلال ليالي مقاطعة ماديسون.

شيء ما في عقل «روبرت كينكيد» كان قد استوعب كل هذا، بشكل ضمني. وكانت هي على ثقة من ذلك.

سارت إلى غرفة النوم، جففت جسدها، ولاحظت أن الساعة تجاوزت العاشرة مساء بقليل. لا يزال الجو حارًّا، ولكن الحمَّام لطَّف درجة حرارتها. أخرجت الفستان الجديد من خزانة الثياب.

سحبت شعرها الأسود الطويل للوراء وثبتته بمشبك فضي. حلق فضي في الأذنين، على شكل طارتين كبيرتين، وسوار فضي فضفاض اشترته أيضًا من دي موين ذلك الصباح.

وضعت عطر «أغنية الريح» مرة أخرى. طلاء شفاه خفيف على الوجنتين العاليتين، وجه لاتيني، ظل زهري أفتح حتى من لون الفستان. سمرتها الخفيفة من العمل بالخارج بالسراويل القصيرة والقمصان القصيرة الكاشفة للبطن توافقت تمامًا مع مظهرها بكامله. برزت ساقاها النحيلتان خارج طرف الفستان وبدتا رائعتين.

استدارت أولًا لأحد الجانبين، ثم الآخر، متأملة صورتها في مرآة خوان الزينة، وفكرت أن ذلك أفضل ما يمكنها الوصول إليه. وعندئذٍ، قالت بصوت نصف مسموع، وهي راضية:

ـ جميل جدًّا، مع ذلك.

كان «روبرت كينكيد» يشرب زجاجة البيرة الثانية ويعيد حزم آلات التصوير في حقائبها عندما دخلت إلى المطبخ. تطلع إليها.

قال في نعومة:

ـ يا يسوع!

كل المشاعر، كل البحث والتفكر، عمر كامل من الشعور والبحث والتفكر، تكثف مجتمعًا في تلك اللحظة. ووقع في غرام «فرانشيسكا جونسن»، زوجة المزارع، في مقاطعة ماديسون، بولاية أيوا، الآتية من نابولي قبل زمنٍ بعيد.

ـ أقصد...

كان صوته مرتجفًا قليلًا، أجش قليلًا:

ـ إذا غفرتِ لي جرأتي، تبدين مذهلة الجمال. مذهلة بدرجة تجعل الرجال يركضون حول الحي وهم يعوون من فرط اللوعة. وأنا جاد في هذا. إنكِ في غاية الأناقة، يا «فرانشيسكا»، بالمعنى الأصفى لتلك الكلمة.

كان إعجابه بها حقيقيًّا، هكذا أدركت. وقد تنعمت في ذلك الإعجاب على مهلها، بل استحمت فيه، ودعته يُدَوِّم فوقها متسربًا عبر مسام جلدها كأنه زيت ناعم تدهنه يدَا إله في مكان ما، إله هجرها منذ سنوات وها هو قد عاد إليها الآن.

وفي قبضة تلك اللحظة، وقعت في غرام «روبرت كينكيد»، المصور والكاتب، من بيلينجهام، ولاية واشنطن، الذي يقود شاحنة «بيك-أب» قديمة يسميها «هاري».

مساحة للرقص من جديد

في مساء يوم الثلاثاء ذلك من أغسطس ١٩٦٥، نظر «روبرت كينكيد» نظرةً ثابتة نحو «فرانشيسكا جونسن»، وبادلته هي نظرة مكافئة. من مسافة عشر أقدام تفصل بينهما تجمد كل منهما قبالة الآخر، بنظرة ثابتة، حميمية، لا فكاك منها.

دق جرس الهاتف. لم تزل ناظرة إليه، ولم تتحرك عند الدقة الأولى أو الثانية. في الصمت الطويل بعد الدقة الثانية، وقبل الثالثة، أخذ هو نفسًا عميقًا ونظر إلى أسفل نحو حقيبتَي آلات تصويره. وبهذا فقط صار بمقدورها أن تتحرك عبر المطبخ نحو الهاتف المعلق على الحائط، بالضبط وراء المقعد الذي يجلس عليه.

ـ منزل «آل جونسن»... أهلًا، يا «مارج». نعم، أنا بخير. نلتقي ليلة الخميس؟

حسبت حساباتها: قال لها إنه باقٍ هنا لأسبوع، وقد أتى أمس، ولم نزل يوم الثلاثاء. لم تجد صعوبةً في اتخاذ قرارٍ بأن تكذب.

كانت واقفةً عند الباب المؤدي إلى الشرفة، وسماعة الهاتف في يدها اليسرى. وكان جالسًا في متناول لمستها، وظهره إليها. مدت يدها اليمنى وأراحتها على كتفه، بطريقة اعتيادية كما قد تفعل امرأة ما مع رجل عزيز عليها. استغرقت أربعًا وعشرين ساعة فقط لكي تشعر بأن «روبرت كينكيد» شخص عزيز عليها.

ـ أوه، يا «مارج»، أنا مرتبطة إذن. سوف أذهب للتسوق في دي موين. فرصة جيدة لكي أنجز كثيرًا من الأمور التي ظللت أؤجلها. تعرفين، في غياب «ريتشارد» والولدين.

استقرت يدها في سكينة عليه. كان بوسعها أن تحس بالعضلة الممتدة من رقبته على طول كتفه، خلف ترقوته تمامًا. كانت تنظر إلى أسفل نحو شعره الرمادي الكثيف، والمفروق بعناية في المنتصف. رأت كيف انسدل شعره فوق ياقة قميصه، وكانت «مارج» تواصل الثرثرة.

ـ نعم، اتصل «ريتشارد» قبل قليل... لا، لن يحصل التحكيم إلا يوم الأربعاء، غدًا. قال «ريتشارد» إنهم لن يكونوا في البيت قبل وقت متأخر من مساء الجمعة. هناك شيء ما يريدون رؤيته يوم الخميس. إنها رحلة طويلة بالسيارة، وخصوصًا في سيارة نقل...

لا، لن تبدأ تمرينات كرة القدم إلا بعد أسبوع. أها، أسبوع. أو على الأقل هذا ما قاله «مايكل».

كانت واعية بمقدار دفء جسمه عبر القميص، تسرب الدفء إلى يدها، وصعد نحو ذراعها، ومن هناك سرى منتشرًا عبرها إلى حيث شاء أن يذهب، بلا أي جهد من جانبها، وفي الحقيقة بلا أي سيطرة منها كذلك. ظل هو ثابتًا، لا يريد أن يصدر عنه أي صوت قد يجعل «مارج» تتساءل. فهمت «فرانشيسكا» هذا.

ـ آه، نعم، كان رجلًا يسأل عن وجهة يقصدها.

تمامًا كما خمنت، ذهب «فلويد كلارك» إلى البيت مباشرة وأخبر زوجته بأمر السيارة الخضراء التي كان قد رآها في باحة منزل أسرة «جونسن» عند مروره بسيارته يوم أمس.

ـ مصور؟ ربَّاه، لا أدري. لم أعطِ المسألة أي اهتمام. كان يمكن أن يكون كذلك.

صارت الأكاذيب تخرج بسهولة أكثر الآن.

ـ كان يبحث عن جسر «روزمان»... أذلك صحيح؟ يلتقط صورًا للجسور القديمة، هه؟ آه، طيب، عمل لا ضرر منه.

ـ من الهيبيز؟

أطلقت «فرانشيسكا» ضحكة ولاحظت رأس «كينكيد» يهتز ببطء للوراء والأمام.

ـ لكن، أنا لا أعرف كيف قد يبدو شخص هيبي. كان هذا الرجل مهذبًا. لم يبقَ إلا دقيقة أو اثنتين ثم ذهب... لا أعرف إن كان لديهم هيبيز في إيطاليا، يا «مارج». لم أذهب إلى هناك منذ ثماني سنوات. علاوة على أنني، كما قلت لك، لست متأكدة أنني سأتعرف على الشخص الهيبي لو صادف أن رأيت أحدهم.

واصلت «مارج» الحديث حول ممارسة الحب بحرية والعيش في جماعات والمخدرات وكل ما قرأت عنه في مكان ما.

ـ «مارج»، أنا كنت على وشك أن آخذ حمَّامًا عندما اتصلت، لذا من الأفضل أن أذهب سريعًا قبل أن يبرد الماء... حسنٌ، سأتصل بك قريبًا. سلامًا.

كرهت أن ترفع يدها عن كتفه، لكن لم يعد هناك عذر معقول لكيلا ترفعها. وهكذا سارت نحو حوض المطبخ وأدارت الراديو. مزيد من موسيقى «الكانتري». ظلت تضبط المؤشر حتى انبعث صوت فرقة موسيقية كبيرة فتركت المؤشر هنالك.

قال لها:

ـ «تانجرين».

ـ ماذا؟

ـ الأغنية. اسمها هكذا، «تانجرين». إنها عن امرأة أرجنتينية.

مرة أخرى كلام السطح الذي يتجنب الأعماق. أن يقول أي شيء، أي شيء. أن يقاتل لكسب الوقت ولاستيعاب الإحساس بهذا كله، وأن يسمع في موضع خلفي من عقله صوت الطقطقة الهينة لباب يوصد على شخصين في مطبخ بولاية أيوا.

ابتسمت له في نعومة.

ـ أأنت جائع؟ العشاء جاهز متى شئت.

ـ كان يومًا طويلًا وجميلًا. لا أمانع في شرب زجاجة بيرة أخرى قبل أن آكل. هل تتناولين واحدة معي؟

المماطلة، البحث عن توازنه، وفقدانه مع كل دقيقة تمر.

وافقت. فتح اثنتين ووضع واحدة إلى جانبها من الطاولة.

كانت «فرانشيسكا» مسرورة من المظهر الذي بدت عليه ومن إحساسها بنفسها. أنثوية. هكذا أحست بنفسها. خفيفة ودافئة وأنثوية. جلست على مقعد المطبخ، قاطعت ساقيها، فانسحب طرف الفستان لأعلى حتى ركبتها اليمنى. كان «كينكيد» يميل مستندًا على الثلاجة، بذراعيه معقودتين على صدره، وزجاجة «البادوايزر» في يمناه. كانت مسرورة أن يلاحظ ساقيها، وقد فعل.

لاحظ كل ما فيها. كان بوسعه في وقت سابق أن يتخلى عن هذا، لا يزال بوسعه أن يفعل. صاح فيه صوت العقل: «دعك من هذا، يا «كينكيد»، ولتعد إلى الطريق. صور الجسور، سافر إلى الهند.

توقف في بانكوك خلال الطريق، وابحث عن ابنة تاجر الحرير إياها التي تعرف كل سر مِن أسرار النشوة، التي يمكن أن تعلمه الطرق القديمة. اسبح عاريًا معها عند مطلع الفجر في بِرَك الغابة وأنصت لصرخاتها بينما ينقلب كيانها بين يديك ساعة الغسق. دعك من هذا» ـ كان الصوت الآن فحيحًا ـ «فهو يفوق قدرتك».

غير أن موسيقى بطيئة لتانجو الشارع قد بدأت. كانت تُعزف في مكان ما؛ بوسعه أن يسمعها، أكورديون قديم. كانت تنبعث من بعيد خلفه، أو من بعيد أمامه، لا يعرف عن ثقة. غير أنها تحركت نحوه في ثبات. وطمس صوتها معاييره، وقمع بدائله ووجهها نحو الاتحاد. فعلت الموسيقى ما فعلت بعناد، حتى لم يبقَ مكان يمكن الاتجاه نحوه، ما عدا نحو «فرانشيسكا جونسن».

ـ يمكننا أن نرقص، إذا أحببتِ. الموسيقى مناسبة جدًّا للرقص.

هكذا قال لها بطريقته تلك الجادة الحيية. ثم أضاف على الفور تحذيرًا:

ـ أنا لست راقصًا شديد البراعة، لكن إذا أحببتِ فيمكنني غالبًا أن أدبر أمري في مطبخ.

خمش «جاك» في الباب المفضي إلى الرواق، يريد الدخول. يمكنه أن يبقى في الخارج.

تضرَّجت «فرانشيسكا» خجلًا، قليلًا فقط.

ـ موافقة. لكني لست راقصة بارعة، كذلك... أو الآن على الأقل. كنت كذلك ذات يوم وأنا صبية في إيطاليا، لكن الآن غاية رقصي ليلة رأس السنة، وحينئذٍ لا أرقص إلا قليلًا جدًّا.

ابتسم ووضع شرابه على النضد. نهضت، وتحرك أحدهما نحو الآخر. قال صوتُ باريتون أملس:

ـ أنتم مع ليلة حفل الثلاثاء الراقص على محطة «دابليو جي إن»، من شيكاجو. سنعود إليكم بعد هذا الفاصل القصير.

ضحك كلاهما. اتصالات هاتفية وفاصل إعلانات. كان هناك شيء ما لا يكف عن إقحام الواقع بينهما. أدركا ذلك من غير أن يعترفا به.

لكنه كان قد قام واقترب منها على أي حال وتناول بيده اليسرى يدها اليمنى. مال ببساطة مستندًا على النضد، وقد تقاطعت ساقاه عند الكاحل، القدم اليمنى في الأعلى. استراحت إلى جانبه، مستندة على حوض المطبخ، وتطلعت عبر النافذة القريبة من الطاولة، وهي تشعر بأصابعه النحيلة حول يدها. لم يكن ثمة نسيم، وكانت عيدان الذرة آخذةً في النمو.

ـ آه، دقيقة واحدة.

سحبت يدها من يده على مضض وفتحت خزانة في الأعلى ناحية اليمين. ومن هناك أخرجت شمعتين بيضاوين كانت قد اشترتهما

من دي موين ذلك الصباح، جنبًا إلى جنب شمعدان نحاسي صغير لكلٍّ منهما. وضعتهما على الطاولة.

اقترب منها، وأمال كل شمعة وأشعلهما واحدة بعد الأخرى، بينما أطفأت مصباح السقف. حل الظلام الآن، إلا من لسانَي لهب ضئيلين يتجهان مستقيمين إلى أعلى، يكادان لا يهتزان في الليل ساكِن الريح. لم يبدُ هذا المطبخ العادي في مثل هذا الجمال من قبل قَطُّ.

بدأت الموسيقى مجددًا. لحسن حظ كلٍّ منهما، كان عزفًا بطيئًا لموسيقى «أوراق الخريف».

شعرت بارتباك، وهو كذلك. لكنه تناول يدها، ولف إحدى ذراعيه حول خصرها، اقتربت منه قليلًا، وتبدَّد الارتباك. بطريقة ما كان لهذا مفعول السحر. مدَّ ذراعه أكثر وأحاط بخصرها وقربها منه أكثر.

كانت تشم رائحته، رائحة نظافة وصابون ودفء. رائحة طيبة وأساسية لرجل متحضر بدا، في جزء ما منه، إنسانًا بدائيًّا.

قال لها، فيما يأخذ يديها معًا بحيث ترقدان على صدره، قريبًا من كتفه:

ـ عطر لطيف.

ـ أشكرك.

رقصا ببطء، من غير أن يتحركا بعيدًا جدًّا في أي اتجاه. كانت تحس بساقيه أمام ساقيها، وبطناهما يتلامسان بين لحظة وأخرى.

انتهت الأغنية، لكنه ظل ممسكًا بها، وأخذ يدندن النغمة ذاتها التي عُزفت للتو، فلبثا كما كانا حتى بدأت الأغنية التالية. وتلقائيًّا قادها ليرقصا عليها، وتواصلت الرقصة، بينما يتذمر جراد الحقل من اقتراب سبتمبر.

كانت تشعر بعضلات كتفه عبر القميص القطني الخفيف. كان حقيقيًّا، حقيقيًّا أكثر من أي شيء قد عرفته ذات يوم. مال ميلًا خفيفًا ليضع وجنته على وجنتها.

خلال الوقت الذي قضياه معًا، كان قد أشار لنفسه ذات مرة بأنه واحد من آخر رعاة البقر. كانا جالسين على العشب بجانب مضخة الماء بالخارج وراء المنزل. لم تفهم قوله واستفسرت منه.

كان قد قال لها:

ـ هناك سلالة ما من الرجال، سلالة مندثرة، أو أنها سوف تندثر قريبًا جدًّا. العالم يصبح منظمًا، بل مفرط التنظيم بالنسبة إليَّ وإلى بعض الآخرين. كل شيء في مكانه، وهناك مكان لكل شيء. صحيح أن معدات التصوير الخاصة بي منظمة جيدًا، أعترف بهذا، لكني أتحدث عن شيء أكثر من ذلك. القواعد والضوابط والقوانين والأعراف الاجتماعية. هرمية السلطة، ومناطق السيطرة، والخطط طويلة المدى، والميزانيات. قوة الشركات الكبرى؛ عبارة «نثق في الميزانية»، بدلًا من عبارة

«نثق في الله». عالم من البدل المجعدة والشارات المثبتة بالأسماء.

ليس جميع الرجال سواء. البعض سوف يتوافق مع العالم الآتي. والبعض، ربما حفنة قليلة منا، لن يتوافق معه. يمكنك رؤية ذلك في أجهزة الكمبيوتر والروبوتات وما ينذرون به. في عوالم أقدم، كانت هناك أشياء نستطيع أن نؤديها، ونحن مصمَّمون لأن نؤديها، ولا أحد أو لا أي آلة يمكن أن تؤديها. نركض بسرعة، ونحن أقوياء ورشيقون، وشرسون وقُساة. مُنحنا الشجاعة. يمكننا أن نقذف الرِّماح لمسافات بعيدة وأن نلتحمَ في عِراك بالأيدي المجردة.

في نهاية المطاف، سوف تتولى أجهزة الكمبيوتر والروبوتات إدارة الأمور. سوف يدير البشر تلك الآلات، لكن تلك مهمة لا تتطلب شجاعة أو قوة، أو أي سمات من هذا القبيل. والحقيقة، لم يعُد للرجال أي نفع. كل المطلوب بنوك حيوانات منوية لضمان استمرار النوع، وقد بدأ ذلك يحدث منذ الآن. تقول النساء إن أغلب الرجال عشاق فاشلون وهكذا إذا حل العلم محل الجنس فلن تكون خسارة كبرى.

إننا نتخلى عن المراعي المفتوحة، صرنا منظمين، وروَّضنا عواطفنا. الفعالية والكفاءة وجميع تلك القطع الأخرى للحيل الفكرية. ومع فقدان المراعي المفتوحة، يختفي رعاة البقر، شأنهم شأن الأسد الجبلي والذئب الرمادي. لم يعد هناك متسع للرحالة.

أنا أحد آخِر رعاة البقر. منحني عملي نوعًا من المرعى المفتوح، فقط بالقدر الذي يُمكن إيجاده في أيامنا هذه. لست حزينًا لذلك، ربما فقط مهموم قليلًا، على ما أظن. ولكن لا بد من حدوث هذا كله؛ فهذا هو السبيل الوحيد أمامنا لكيلا ندمر أنفسنا. في رأيي أن الهرمونات الذكورية هي السبب الأصلي لكل مشكلات هذا الكوكب. الهيمنة القديمة على قبيلة أخرى أو على محارب آخر شيء، وامتلاك الصواريخ شيء آخر تمامًا. وامتلاك القدرة على تدمير الطبيعة على نحو ما نفعل الآن هو أيضًا شيء آخر تمامًا. كانت «راشيل كارسون» على حق، وهكذا كان أيضًا «جون موير» و«ألدو ليوبولد».

لعنة الأزمنة الحديثة هي غلبة الهرمونات الذكورية حيث يمكنها أن تسبب ضررًا طويل الأمد. حتى لو لم نكن نتحدث عن الحروب بين الدول أو الاعتداءات على الطبيعة، فلا تزال هناك تلك العدوانية التي تفرق بيننا والمشكلات التي علينا أن نعمل على حلها. لا بد لنا من أن نسمو بتلك الهرمونات الذكورية بطريقة ما، أو على الأقل أن نضعها تحت السيطرة.

لقد حان الوقت على الأرجح لأن نضع جانبًا كل الأمور الصبيانية تلك وأن ننضج. يا للجحيم، إني أتبين ذلك في داخلي وأعترف بوجوده. أحاول فقط أن أصنع بعض الصور الجميلة وأن أغادر الحياة قبل أن يعفو عليَّ الزمن تمامًا أو أن أتسبب في ضرر جسيم ما.

على مدى السنوات، فكرتْ فيما قاله. بدا لها كلامه صائبًا، بطريقةٍ ما، في ظاهره. ومع ذلك فإن أساليبه تناقضت مع ما قال.

كانت تكمن عدوانية ما في داخله، لكنه بدا قادرًا على التحكم فيها، على إشعال فتيلها ثم التخلي عنها كلما أراد ذلك. وذلك ما حيَّرها وجذبها في الوقت نفسه ـ قوة لا تُصدق، لكنها تحت السيطرة، بمعيارٍ مضبوط، قوة كالسهم، ممتزجة بالدفء وبلا شائبة من خسة.

في ليلة الثلاثاء تلك، شيئًا فشيئًا وبلا تخطيط، تحرك كل نحو الآخر أقرب فأقرب، وهما يرقصان في المطبخ. كانت «فرانشيسكا» مضمومة إلى صدره تمامًا، وتساءلت إن كان يحس بنهديها عبر الفستان والقميص وكانت واثقة أنه يحس بهما.

كان شعورها به رائعًا، وأرادت أن يستمر هذا إلى الأبد. مزيد من الأغنيات القديمة، مزيد من الرقص، مزيد من جسده ملتصق بجسدها. لقد أضحت امرأة من جديد. كانت هناك مساحة للرقص من جديد. ببطء وبلا توقف، كانت تعود إلى ديارها، نحو موضع لم تكن فيه قَطُّ.

كان الجو حارًّا. ارتفعت الرطوبة، وانبعث هزيم الرعد بعيدًا في الجنوب الغربي. التصقت الفراشات الصغيرة بسلك الباب، متطلعة نحو الشمعتين، في مطاردة للنيران.

كان يقع في هواها الآن، وهي أيضًا. أبعدت خدها عن خده، وتطلعت نحوه بعينين سوداوين، وقبَّلها، وردت قُبلته بمثلها، وتبادلا القُبلات الناعمة طويلًا، نهرًا من القبلات.

توقفا عن التظاهر بالرقص، وطوقت رقبته بذراعيها. كانت يده اليسرى تلتف حول خصرها وراء ظهرها، ويده الأخرى تمسد على عنقها ووجنتها وشعرها. تحدث «توماس وولف» عن «شبح التوق القديم». لقد هاج الشبح في داخل «فرانشيسكا جونسن». في كليهما.

كانت «فرانشيسكا» جالسة بجانب النافذة في يوم ميلادها السابع والستين، تشاهد المطر وتتذكر.

حملت كأس البراندي إلى داخل المطبخ وهناك توقفت للحظة، تتأمل الموضع ذاته حيث وقف كلاهما. انطلقت المشاعر في داخلها غامرة، وكانت دائمًا هكذا. قوية بما يكفي حتى لا تجرؤ هي، عبر السنين، على فعل هذا بالتفصيل سوى مرة واحدة في كل عام، وإلا لتفكك عقلها بطريقة ما تحت ضربات العاطفة المحضة لهذا كله.

كان امتناعها عن استحضار ذكرياتها مسألة بقاء، وإن كانت التفاصيل، خلال السنوات القليلة الأخيرة، تعود إليها بتواترٍ أكثر فأكثر. كفت عن محاولة منعه من الظهور في داخلها. كانت الصور واضحة، وحقيقية، وحاضرة. وتنتمي للماضي البعيد أيضًا، منذ اثنين وعشرين عامًا. لكنها أصبحت ببطء هي واقعها مرة ثانية، الواقع الوحيد الذي تكترث أن تعيشه.

كانت تعلم أنها في السابعة والستين وتقبلت هذه الحقيقة، لكن استعصى عليها تخيل أن «روبرت كينكيد» قد بلغ الآن الخامسة والسبعين. لا يمكنها أن تفكر في هذا، لا يمكنها أن تتصوره ولا

حتى أن تتصور تصوره. كان هنا معها، في هذا المطبخ تمامًا، بقميصه الأبيض، وشعره الرمادي الطويل، وسرواله الكاكي وصندله البني، وسواره الفضي، وسلسلة فضية حول رقبته. كان هنا وذراعاه تطوقانها.

أخيرًا انسحبت من عناقه، مبتعدة عن الموضع الذي وقفا فيه في المطبخ، وتناولت يده، وقادته نحو الطابق العلوي، نحو الدرج، مرورًا بغرفة «كارولين»، وغرفة «مايكل»، وحتى غرفتها، حيث أضاءت مصباح قراءة صغيرًا بجانب الفراش.

الآن، وبعد مرور كل تلك السنين، حملت «فرانشيسكا» كأس البراندي وسارت ببطء نحو الطابق العلوي، ويدها اليمنى ممدودة من خلفها لكي تستحضر ذكراه وهو يصعد معها الدرج ويسير معها في الردهة حتى غرفة النوم.

كانت الصور المادية منقوشة في عقلها بوضوح تام يكاد يجعلها ربما في مثل حدة صوره الفوتوغرافية. تذكرت تتابع اللقطات مثلما في الأحلام، من خلع ثيابهما ثم رقادهما عاريين في الفراش. تذكرت كيف رفع نفسه فوقها تمامًا وحك صدره ببطء في بطنها وفي نهديها. وكيف كرر فعله هذا مرة بعد مرة، كأنه طقس حيواني للمداعبة في مخطوط عتيق لعلم الحيوان. بينما تحرك من فوقها، كان يتناوب تقبيل شفتيها أو أذنيها أو يمرر لسانه على رقبتها، كان يلعق جسدها كما قد يفعل فهد مرهف بورقة عشب طويلة في المرعى.

كان حيوانًا، ذكر حيوان رشيقًا وصلبًا، لم يفعل أي شيء صريح لكي يهيمن عليها ومع ذلك هيمن عليها تمامًا، تمامًا كما أرادت هي لذلك أن يحدث في هذه اللحظة.

لكن الأمر كان أبعد كثيرًا من مجرد الجسد، مع أن قدرته على أن يمارس الحب لوقت طويل بلا أي كلل شكلت جزءًا من الموضوع. كان الحب معه شيئًا روحيًّا، مهما بدا ذلك لها الآن قولًا مبتذلًا، نظرًا إلى الانتباه الذي أُولِيَ لتلك الأمور على مدى العقدين الأخيرين. كان شيئًا روحيًّا، لكنه لم يكن مبتذلًا.

في خضم الفعل، فعل الحب، كانت قد همست له بذلك، قبضت على هذه الحقيقة في جملة واحدة:

ـ «روبرت»، أنت قوي للغاية، وهذا مخيف.

نعم، كان يتحلى بقوة الجسد، لكنه استخدم قوته بحذر. لكن الأمر أكثر من ذلك، مع هذا.

كان الجنس جزءًا من الأمر. في الوقت الذي مر بها منذ التقته، استقرت في ترقب ـ أو فكرة احتمال على كل حال ـ شيء ممتع، قطع ما لروتين ضربات الرتابة المتوالية. لكنها لم تتوقع قوته الغريبة هذه.

بدا كما لو كان قد استولى عليها تمامًا، بجميع أبعادها. وكان ذلك هو الشيء المخيف. لم يساورها شك في البداية أن جانبًا واحدًا منها يمكنه أن يبقى بمنأى عن أي شيء فعلته هي و«روبرت

كينكيد»، الجانب الذي انتمى إلى عائلتها وإلى حياتها في مقاطعة ماديسون.

لكنه جردها منه ببساطة، جردها من كل شيء. كان ينبغي عليها أن تعرف بمجرد أن خرج أول الأمر من سيارته ليسألها عن الاتجاه نحو مقصده. بدا لها عندئذٍ مثل «شامان»، وقد كان حكمها المبدئي ذلك صائبًا.

كانا يمارسان الحب لساعة، وربما أكثر، ثم ينسحب ببطء ويتطلع إليها، يشعل سيجارة له وأخرى لها. أو أحيانًا كان فقط يرقد بجانبها، ودائمًا يترك إحدى يديه تتحرك على جسدها. ثم يلجها من جديد، هامسًا بكلمات رقيقة في أذنها بينما يضاجعها، ويُقبلها بين العبارات، بين الكلمات، وذراعه تطوق خصرها، وهو يشدها إليه ويشد نفسه إليها.

وكانت تشرع في التخلي عن عقلها، وتُثقل أنفاسها، وتدعه يأخذها إلى حيث كان يعيش، وقد كان يعيش في أماكن موحشة مسكونة بالأرواح، في الأقاصي البعيدة من سلم التطور الإنساني.

ووجهها غارق في رقبته وجلدها يمس جلده، كان بوسعها أن تشم أنهارًا ودخان حطب، وكان بوسعها أن تسمع هدير قطارات بخارية تتحرك من محطات شتائية في أمسيات مرت من زمان طويل، كان بوسعها أن ترى مسافرين في أردية سوداء يتحركون بثبات بامتداد أنهار متجمدة وعبر مروج صيفية، يشقون طريقهم نحو نهاية الأشياء. اعتلاها الفهد واثبًا، مرةً بعد مرة بعد مرة، مثل ريح بَرارٍ طويلة، وهي تتقلب من تحته، امتطت تلك الريح

كأنها إحدى عذراوات المعبد تطير نحو النيران العذبة اللينة التي تميز المنحنى الناعم نحو الفَناء.

وغمغمت، بنعومة، وبأنفاس متقطعة:

ـ أوه، «روبرت»... «روبرت»... إنني أضيع.

هي، التي توقفت عن الوصول لذروة النشوة منذ سنوات، تأتيها الآن ذرى النشوة في تتابع طويل مع مخلوق هو نصف رجل ونصف شيء آخر مجهول. تساءلت بشأنه وبشأن طاقته على المواصلة، فأخبرها أنه يمكنه بلوغ تلك الأماكن بعقله وبجسده كذلك، وأن للنشوة التي يبلغها العقل طبيعة متميزة.

لم تكن لديها أدنى فكرة عما يقصد. كل ما كانت تعرفه أنه قد شدَّ حبلًا من نوع ما وأحكم لفَّه حول كل منهما بشدة حد أنها كان يمكن لها أن تختنق لولا ما شعرت به من تحرر وثاب من أسر نفسها.

امتدت الليلة، وتواصلت الرقصة الكبرى الدوارة. طرح «روبرت كينكيد» كل معنى لأي شيء يسير خطًّا مستقيمًا، وانتقل إلى جزء من نفسه لا يتفاعل إلا مع الشكل والصوت والظل. مضى قدمًا في طرقات السبل القديمة، مكتشفًا اتجاهه على ضوء شموع من صقيع يذوب في نور الشمس على عشب الصيف وعلى أوراق الخريف الحمراء.

وقد سمع الكلمات التي همس بها لها، كما لو أن صوتًا آخر غير صوته ينطقها. شذرات من إحدى قصائد «ريلكه»: «حول البرج القديم... ظللتُ أدور لألف سنة». سطور من «أنشودة الشمس» لشعب «النافاجو». همس لها أيضًا بالرؤى التي استحضرتها له ـ برمال تهب ورياح أرجوانية وبجع بني يعتلي ظهور دلافين تتجه صوب الشمال على طول شواطئ أفريقيا.

صدرت عن فمها أصوات، أصوات صغيرة، أصوات غير مفهومة، إذ قوست نفسها نحوه. لكنه كان يفهم هذه اللغة تمام الفهم، وفي هذه المرأة التي تحته، وبطنه على بطنها، وهو يغور عميقًا بداخلها، وجد «روبرت كينكيد» نهاية بحثه الطويل.

وقد أدرك أخيرًا مغزى كل آثار الأقدام الصغيرة على كل الشواطئ المقفرة التي سار عليها ذات يوم، وكل الشحنات السرية المحمولة على متن السفن التي لم تُبحر أبدًا، وكل الوجوه المحتجبة التي راقبت مروره عبر شوارع ملتوية في مدن الشفق. كان مثله مثل صياد عظيم من القدامى، ظل مرتحلًا لمسافة أميال، وها هو الآن يرى نور النار الموقدة في موطنه، فتتبدد وحدته. أخيرًا. أخيرًا. لقد ارتحل بعيدًا... بعيدًا جدًّا. وها هو يرقد فوقها، مسبوكًا على نحو مثالي ومكتملًا اكتمالًا غير قابل للتغيير في حبه لها. أخيرًا.

قرب النهار، رفع نفسه قليلًا وقال، ناظرًا نحو عينيها مباشرة:

ـ هذا هو سبب وجودي على هذا الكوكب، في هذا الوقت، يا «فرانشيسكا». ليس لكي أسافر أو ألتقط الصور، ولكن لأحبك.

أعلم ذلك الآن. لقد ظللتُ أسقط من فوق حافة مكان عالٍ وهائل، منذ موضع ما في الماضي، وعلى مدى سنين أكثر عددًا مما قد عشته في هذه الحياة. وخلال كل تلك السنين، ظللتُ أسقط نحوكِ أنتِ.

عندما نزلا إلى الطابق الأرضي، كان الراديو لا يزال مفتوحًا. طلع الفجر، ولكن الشمس ظلت محتجبة وراء غلالة خفيفة من سحاب.

ـ «فرانشيسكا»، أريد أن أطلب منكِ شيئًا.

ابتسم لها بينما تشغل نفسها بإبريق القهوة.

ـ ماذا؟

نظرَت إليه. آه، يا رب، إنني أحبه للغاية، هكذا فكرت، وهي مزعزعة، ولا تزال راغبة في مزيد منه، مزيد بلا توقف أبدًا.

ـ البسي سروال الجينز والتيشيرت اللذين كنتِ ترتدينهما ليلة أمس، وكذلك الصندل. لا شيء غير ذلك. أريد أن آخذ لكِ صورة على نحو ما تبدين هذا الصباح. صورة من أجلنا نحن الاثنين فقط.

صعدت للطابق العلوي، وساقاها لا تزالان خائرتين من لفِّهما من حوله طوال الليل، ارتدت ثيابها، وخرجت معه إلى المرج. وفي ذلك الموضع أخذ لها الصورة التي تتأملها كل عام.

الطريق السريع والصقر

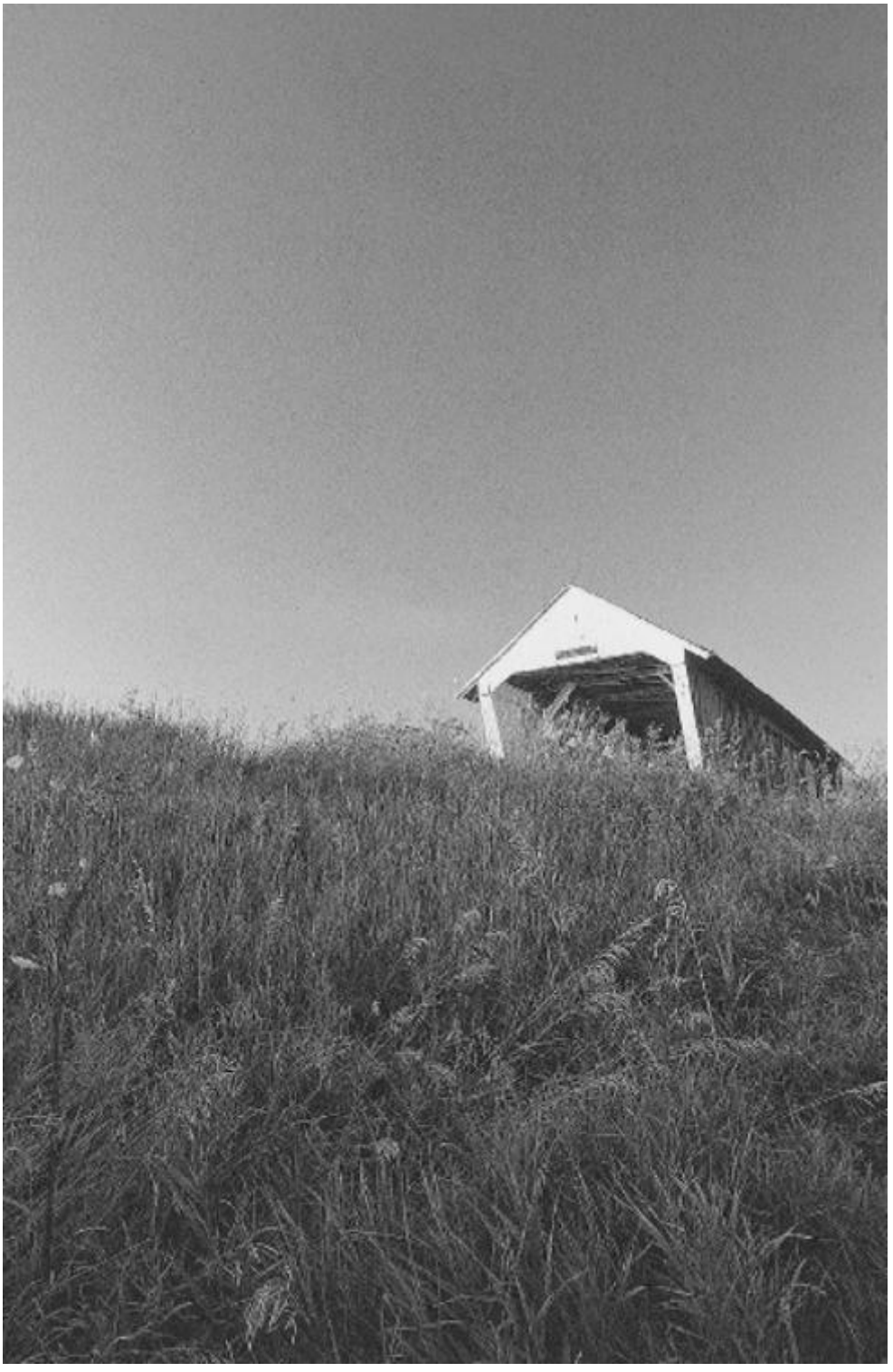

خلال الأيام القليلة التالية توقف «روبرت كينكيد» عن التقاط الصور الفوتوغرافية، و«فرانشيسكا» أيضًا، توقفت عن رعاية المزرعة، فيما عدا المهام الضرورية والتي قللتها للحد الأدنى.

أمضيا كل وقتهما معًا، إما يتحدثان وإما يمارسان الحب. مرتين استجاب لطلبها، وعزف على الجيتار وغنى بصوت يقع في موضع ما بين المقبول والجيد، فعل ذلك وهو محرج قليلًا، وقد أخبرها أنها أول جمهور يسمعه وهو يغني. عندما قال ذلك، ابتسمت وقبَّلته، ثم رقدت على ظهرها غارقة في مشاعرها، مستمعةً إليه يغني عن سفن صيد الحيتان وعن رياح الصحراء.

استقلت معه شاحنته التي يسميها «هاري» وذهبا إلى مطار دي موين، حيث شحن الأفلام التي صورها إلى نيويورك. كان دائمًا ما يرسل البكرات القليلة الأولى مسبقًا كلما أمكنه هذا، بحيث يستطيع المحررون أن يلقوا نظرة على ما كان يُنتجه ويمكن للفنيين أن يتأكدوا من أن حاجب العدسات في آلات التصوير قد أدَّى وظيفته كما ينبغي.

بعد ذلك اصطحبها إلى مطعم فاخر لتناول الغداء وأمسك بيديها على الطاولة، وهو ينظر إليها بطريقته الحادة. وقد ابتسم النادل وهو يرمقهما، متمنيًا أن يحظى بمثل ذلك الشعور ذات يوم.

تعجَّبَتْ هي من طبيعة إحساس «روبرت كينكيد» بالزوال الوشيك لأساليبه في الحياة، ومن البساطة التي يتقبَّل بها هذا الزوال. كان يرى الفناء يزحف نحو رعاة البقر ونحو مَن هم على شاكلتهم، بمَن في ذلك هو نفسه. وقد بدأت تفهم ماذا كان يقصد حينما قال إنه يقف على طرف فرع ما من فروع شجرة التطور، وأن مسألة اندثار هذا الفرع محسومة. ذات مرة، لدى حديثهما عما أسماه «الأشياء الأخيرة» همس:

ـ «لن تعود بعد ذلك أبدًا» هكذا صاح سيد الصحراء العليا، مرددًا: «لن تعود أبدًا، أبدًا، أبدًا».

لم يكن يرى أي شيء آخر وراءه على الفرع. صار نوعه باليًا.

في يوم الخميس تحدثا بعد أن مارسا الحب في ساعة الأصيل. كان كلاهما يعلم أن هذا الحديث سوف يحين وقته، وكلاهما يتحاشاه.

قال:

ـ ماذا سنفعل؟

كانت صامتة، صمت الممزَّقين. قالت برقة:

ـ لا أدري.

ـ اسمعي، سوف أبقى هنا إذا أردتِ هذا، أو أقيم في البلدة، أو في أي مكان آخر. عندما ترجع أسرتكِ للبيت، سوف أتكلم ببساطة مع زوجكِ وأشرح له طبيعة الوضع. لن يكون الأمر سهلًا، ولكني سأنهيه.

هزَّت رأسها يمينًا ويسارًا.

ـ لن يدخل هذا رأس «ريتشارد» بالمرة؛ فهو لا يفكر بمثل تلك المفردات. لا يفهم ماذا يعني السحر أو الشغف وكل تلك الأمور الأخرى التي نتحدث عنها ونعيشها معًا، ولن يفهمها أبدًا. ولا

يجعله هذا بالضرورة شخصًا أدنى. المسألة أن هذا كله بعيد للغاية عن كل ما شعر به أو فكر فيه ذات يوم. لا يملك وسيلة للتعامل مع مثل هذا.

ـ فهل سنتخلى عن كل هذا، إذن؟

كان جادًّا، بلا ابتسام.

ـ لا أعلم ذلك، أيضًا. أنت تمتلكني، يا «روبرت» بطريقة غريبة. لم أشأ أن يمتلكني أحد، لم أكن بحاجة لذلك، وأعلم أنك لم تقصد ذلك، لكن ذلك ما حدث. لم أعد جالسة بجوارك، هنا على هذا العشب. أنت تمتلكني في داخلك كأنني سجينة بإرادتي.

أجاب:

ـ لستُ متأكدًا إن كنتِ بداخلي، أو إن كنتُ أنا بداخلك، أو أنني أمتلكك. على الأقل أنا لا أريد أن أمتلكك. أعتقد أن كلينا صار بداخل كائن آخر خلقناه، اسمه «نحن».

حسنٌ، إننا لسنا بداخل ذلك الكائن حقًّا. بل إننا ذلك الكائن نفسه. كلانا فقد نفسه وصنعنا شيئًا آخر، شيئًا موجودًا فقط في صورة تشابُكٍ منا نحن الاثنين. يا للمسيح، إننا مغرمان. مغرمان بأعمق وأبلغ ما يمكن للغرام أن يكون.

تعالي وسافري معي، يا «فرانشيسكا». تلك ليست مشكلة. سوف نمارس الحب في رمل الصحاري ونشرب البراندي على الشرفات في مومباسا، ونراقب السفن الشراعية التقليدية من بلاد

العرب تفرد أشرعتها مع أول ريح في الصباح. سوف أريكِ منتزه «بلاد الأسود» في فلوريدا ومدينة فرنسية قديمة على خليج البنغال حيث يوجد مطعم رائع فوق سطح مبنى مرتفع، وحيث القطارات التي تصعد مَجَازات جبلية ضيقة وحيث الحانات الصغيرة يديرها الباسكيون في مرتفعات جبال البرانس. في محمية طبيعية للنمور جنوب الهند، يوجد مكان مميز على جزيرة في وسط بحيرة كبيرة. إذا كنتِ لا تحبين الطريق سوف أؤسس متجرًا في مكان ما وأصور أشياء من محيطنا أو صورًا للأهالي أو أي شيء يلزم لندبر عيشنا.

ـ «روبرت»، عندما كنا نمارس الحب ليلة أمس، قلتَ شيئًا ما زلتُ أتذكره. ظللتُ أهمس لك عن قوتك، ويا إلهي، إنك تمتلك هذا. قلت لي: «أنا الطريق السريع والصقر وكل الأشرعة التي خاضت عباب البحر ذات يوم». وقد كنتَ محقًّا. هذا ما تشعر به؛ تشعر بالطريق في داخلك. كلَّا، بل هو أكثر من ذلك، وعلى نحو ما لست واثقة من أنني قادرة على تفسيره، أنت الطريق نفسه. في الشق حيث الوهم يلقى الحقيقة، هناك تكون أنت، بالخارج على الطريق، والطريق هو أنت.

أنت حقائب ظهر عتيقة، وشاحنة مسماة «هاري»، وطائرات نفاثة متوجهة إلى آسيا. وهكذا أريدك أن تكون. فإذا كان مكتوبًا على فرعك من شجرة التطور الاندثار، كما تقول، فإنني إذن أريدك أن تبلغ تلك النهاية بأقصى سرعتك. ولست واثقة إن كان بوسعك أن تفعل هذا مع وجودي إلى جانبك. ألا تفهم؟ إنني أحبك حبًّا كبيرًا حدَّ أنني لا أستطيع التفكير في أنني أكبح جماحك ولو

لحظة واحدة. فأن أفعل ذلك معناه أن أقتل الحيوان البري الرائع الذي هو أنت، وتلك القوة ستموت معه.

همَّ بالحديث، لكن «فرانشيسكا» أوقفته.

- «روبرت»، أنا لم أنتهِ بعد. إن أخذتني بين ذراعيك وحملتني في سيارتك وأرغمتني على الذهاب معك، فلن أهمس بكلمة شكوى. يمكنك أن تفعل الشيء نفسه بمجرد التكلم معي. لكنني لا أظن أنك ستفعل. فأنت أشد حساسية من هذا، أشد إدراكًا لمشاعري. وأنا لديَّ إحساس بالمسؤولية هنا.

نعم، العيش هنا مضجر على طريقته. إنها حياتي، وكفى. تفتقر إلى الرومانسية، والشهوانية، والرقص في المطبخ على ضوء الشموع، والشعور الرائع برجل يعرف كيف يحب امرأة. والأكثر من كل ذلك، إنها تفتقر إليك. لكن هناك هذا الإحساس اللعين بالمسؤولية لديَّ. نحو «ريتشارد»، ونحو الولدين. مجرد مغادرتي هكذا، مجرد غياب وجودي الجسدي هنا، سيكون أمرًا شاقًّا على «ريتشارد». ذلك وحده يمكنه أن يدمره.

وفوق ذلك، وهذا أسوأ حتى، سيكون مضطرًّا إلى أن يعيش بقية حياته مع تهامس الناس هنا. «ذلك هو «ريتشارد جونسن». زوجته الإيطالية الصغيرة الجذابة هربت مع مصور فوتوغرافي طويل الشعر منذ بضع سنوات». سوف يعاني «ريتشارد» من ذلك، وسوف يسمع الولدان ضحكات ونترست المكتومة، طالما ظلَّا يعيشان هنا. وسوف يعانيان، هما أيضًا. وسوف يكرهاني بسبب ذلك.

بقدر ما أريدك وبقدر ما أريد أن أكون معك وجزءًا منك، لا يمكنني أن أنتزع نفسي بعيدًا عن واقعية مسؤولياتي. إذا أرغمتني، بدنيًّا أو عقليًّا، على الذهاب معك، كما قلت لك قبل قليل، فليس بوسعي مقاومة ذلك. لا قوة لديَّ، بسبب مشاعري نحوك. وعلى الرغم مما قلته لك عن عدم رغبتي في أن أسلبك الطريق، فسوف أذهب معك بسبب رغبتي الأنانية فيك.

لكن أرجوك، لا ترغمني. لا تجعلني أتخلى عن هذا، عن مسؤولياتي. فليس بوسعي أن أتخلى عنها ثم أواصل العيش مع التفكير فيما فعلت. إذا ما رحلت الآن، فإن تلك الأفكار سوف تجعل مني شيئًا آخر غير المرأة التي أحببتَها.

كان «روبرت كينكيد» صامتًا. أدرك ما كانت تقول له حول الطريق والمسؤوليات وكيف يمكن للإحساس بالذنب أن يحولها لشيء آخر. وأدرك أنها كانت على حق، من ناحية ما. تطلع خارج النافذة، وهو يصارع نفسه في داخله، يصارع لكي يفهم حقيقة مشاعرها. وشرعت هي تبكي.

ثم احتضن أحدهما الآخر لوقت طويل. وهمس لها:

ـ لديَّ شيء واحد أقوله، شيء واحد فقط؛ ولن أقوله مرة ثانية بعد ذلك أبدًا، لأي إنسان، وأطلب منكِ أن تتذكريه: في عالم ممتلئ بالغموض، إن هذا النوع من اليقين لا يأتي إلا مرة واحدة فقط، ولا يتكرر أبدًا، ولو عاش المرء أعمارًا فوق عمره.

مارسا الحب من جديد في تلك الليلة، ليلة الخميس، وظلَّا راقدين معًا حتى ما بعد طلوع الشمس بفترة لا بأس بها، متلامسين ومتهامسين. غفت «فرانشيسكا» بعد ذلك لوهلة، وعندما صحت وجدت الشمس مرتفعة في السماء واشتدت حرارة الجو. سمعت صرير أحد أبواب الشاحنة «هاري» فارتدت بعض الثياب.

عندما نزلت إلى الطابق الأرضي وجدت أنه أعد بعض القهوة وجلس إلى طاولة المطبخ يدخن. ابتسم لها. عبرت الغرفة نحوه وغمست وجهها في عنقه، يداها في شعره، وذراعاه حول خصرها. أدارها وأجلسها على حجره وهو يتحسسها.

أخيرًا نهض واقفًا. كان مرتديًا سرواله الجينز القديم، والحمالات البرتقالية مشدودة على قميص كاكي نظيف، وحذاؤه البوط «الريد وينج» محكم الرباط، والسكين السويسري على حزامه. وصِدار التصوير الفوتوغرافي معلق على ظهر المقعد، ومن جيبه يبرز كابل تشغيل الكاميرا. كان راعي البقر في كامل عدته متأهبًا للانطلاق.

ـ من الأفضل أن أذهب.

أومأت، وشرعت تبكي. رأت دموعًا في عينيه، لكنه ظل محتفظًا بابتسامته الصغيرة تلك.

ـ هل يمكن أن أراسلكِ أحيانًا؟ على الأقل أريد أن أرسل لكِ صورة أو صورتين.

قالت «فرانشيسكا»، وهي تمسح عينيها بمنشفة معلقة في باب الخزانة:

ـ لا مشكلة في هذا. سأجد حجة ما لاستقبال رسائل من مصور هيبي، طالما لم تكن أكثر مما يجب.

ـ لديكِ عنواني ورقم هاتفي في واشنطن، صحيح؟

أومأت.

ـ فإن لم أكن هناك، فاتصلي بمكاتب «الناشيونال جيوغرافيك». هاك، سأكتب لكِ الرقم.

كتب على نوتة ورق بجانب الهاتف، ثم نزع الورقة وناولها إياها.

ـ أو يمكنكِ دائمًا أن تجدي الرقم في المجلة. اسألي عن مكاتب التحرير. وهم يعرفون مكاني في أغلب الأحيان.

لا تترددي إن أردتِ أن تريني، أو أن تتحدثي وحسب إليَّ. اتصلي بي وأنا في أي مكان في العالم واجعلي الاتصال على حساب الرقم الذي تتصلين به، هكذا لن يظهر الرقم في فاتورة هاتفكِ. وسوف أمكث هنا في الجوار بضعة أيام أخرى. فكري فيما قلته لكِ. يمكنني أن آتي إلى هنا، وأن أسوِّي المسألة بسرعة، ثم نستقل السيارة معًا نحو الشمال الغربي.

لم تقل «فرانشيسكا» شيئًا. كانت تعلم أنه قادر فعلًا على تسوية المسألة بسرعة. كان «ريتشارد» أصغر منه بخمس سنوات،

لكنه ليس نِدًّا لـ«روبرت كينكيد» فِكريًّا أو جسديًّا.

ارتدى صِداره. شطَّ عقلها، صار فارغًا، مُدوِّمًا. كان يمكنها أن تسمع نفسها وهي تصيح من موضع ما في داخلها: «لا تغادر، يا «روبرت كينكيد»».

تناول يدها، وخرج من الباب الخلفي نحو الشاحنة. فتح باب مقعد السائق، ووضع قدمه على المرقاة، ثم نزل وضمها إليه من جديد لعدة دقائق. لم يتكلم أي منهما؛ لبثا واقفين ببساطة هنالك، يرسل كل منهما إحساسه بالآخر، ويستقبلانه، ويطبعانه على نحو لا يُمحى. كأنهما يؤكدان مجددًا وجود ذلك الكائن الخاص الذي تحدث عنه.

للمرة الأخيرة، أفلت جسدها وصعد إلى الشاحنة وجلس هناك والباب مفتوح. انهمرت الدموع على خديه، وانهمرت كذلك على خديها. جذب الباب وأغلقه ببطء، وأطلقت المفصلات صريرًا. كانت الشاحنة «هاري» مترددة في الدوران، كعادتها، لكنها سمعت حذاءه طويل الرقبة وهو يدعس المسرِّع، حتى لانت له الشاحنة العجوز في نهاية الأمر.

تراجع بالسيارة قليلًا ولبث هناك وقد دارت السيارة، بتعبير جاد في البداية، ثم بابتسامة صغيرة، وأشار نحو الزقاق قائلًا:

ـ الطريق، كما تعلمين. الشهر القادم سوف أكون في جنوب شرق الهند. أتريدين بطاقة بريد من هناك؟

لم تكن قادرة على أن تتحدث لكنها قالت لا بهزة من رأسها. إذا عثر «ريتشارد» على بطاقة بريد في الصندوق سيكون هذا أكثر مما يمكن تبريره. عرفت أن «روبرت» سيكون متفهمًا. أومأ برأسه.

تراجعت الشاحنة نحو فناء المزرعة، ساحقة الحصباء تحت عجلاتها، ومفرقة الدجاج بعيدًا عنها. طارد «جاك» إحدى الدجاجات حتى داخل سقيفة المعدات وهو ينبح.

لوَّح «روبرت كينكيد» لها من وراء النافذة المفتوحة للمقعد المجاور له. كان بوسعها أن ترى انعكاس وميض الشمس على سواره الفضي، وكان أول زرين من أزرار قميصه مفتوحين.

قاد الشاحنة حتى الممر ودخله. ظلت «فرانشيسكا» تمسح عينيها، تجاهد لأن ترى، وضوء الشمس يصنع من دموعها منشورًا زجاجيًّا غريبًا. ومثلما فعلت في الليلة الأولى للقائهما، سارت سريعًا حتى رأس الممر وراقبت الشاحنة القديمة وهي تتقافز مبتعدة. عند نهاية الممر توقفت الشاحنة، وانفتح الباب المجاور لمقعد السائق، نزل هو ووقف على مرقاة المقعد. كان بوسعه أن يراها على مسافة مائة ياردة خلفه، تبدو ضئيلة من هذه المسافة.

وقف هناك محدقًا، بينما ترتعد الشاحنة «هاري» نافدة الصبر في سخونة الجو. لم يتحرك أي منهما؛ فقد توادعا من قبل. تبادلا النظرات فقط ـ زوجة صاحب المزرعة من ولاية أيوا، وذلك المخلوق الكائن على طرف فرعه من شجرة التطور، واحد من آخر رعاة البقر. ظل واقفًا في الموضع نفسه لثلاثين ثانية، وعينا

المصور لديه لا يفوتهما شيء، تصنعان الصورة الخاصة بهما التي لن يفقدها أبدًا.

أغلق باب الشاحنة، وضغط ناقل الحركة، وكان يبكي من جديد بينما تحول جهة اليسار على الطريق الزراعي صوب ونترست. وعلى حافة المزرعة من جهة الشمال الغربي، نظر إلى الخلف قبيل أجمة الأشجار التي ستحجب مجال رؤيته بمجرد أن يتجاوزها، ورآها عند بداية الممر وقد تربعت على تراب الأرض، ورأسها بين يديها.

* * *

رجع «ريتشارد» والولدان إلى البيت في أول المساء ومعهم حكايات عن المعرض وشريط معقود هو الجائزة التي نالها العجل قبل أن يُباع ليُذبح. أمسكت «كارولين» بالهاتف على الفور. كان يوم الجمعة، فأخذ «مايكل» الشاحنة «البيك-أب» إلى وسط البلدة ليفعل ما قد يفعله أي فتى في السابعة عشرة من عمره في ليالي الجمعة ـ في الأغلب التسكع في الميدان والتحدث للفتيات المارات في سيارات أو الصياح فيهن. وشغل «ريتشارد» التلفزيون، وهو يخبر «فرانشيسكا» كم كان خبز الذرة لذيذًا وهو يتناوله مع الزبد وعصير القيقب.

جلست على أرجوحة الشرفة الأمامية. خرج «ريتشارد» لها في العاشرة مساءً بعد أن انتهى البرنامج الذي كان يشاهده. تمطى وقال:

ـ الرجوع إلى البيت جميل بلا شك.

ثم قال، وهو ينظر إليها:

ـ هل أنتِ بخير، يا «فراني»؟ يبدو أنكِ مرهقة أو شاردة أو فيكِ شيء ما.

ـ نعم، أنا بخير، يا «ريتشارد». يسرني أنكم رجعتم للبيت سالمين.

ـ طيب، سأذهب للنوم؛ كان أسبوعًا طويلًا في المعرض، وأنا في غاية الإرهاق. هل ستأتين يا «فراني»؟

ـ ليس الآن، بعد قليل. الجو لطيف هنا، لذلك سوف أبقى جالسة قليلًا.

كانت متعبة، لكنها أيضًا خشيت من أن «ريتشارد» ربما يفكر في ممارسة الجنس. وما كان بوسعها الليلة احتمال ذلك.

كانت تسمعه يسير هنا وهناك في غرفة نومهما، فوق الموضع الذي كانت تدفع فيه الأرجوحة إلى الوراء وإلى الأمام، وقدماها الحافيتان على أرض الشرفة. ومن الطرف الخلفي للمنزل كانت تسمع الصوت المنبعث من راديو «كارولين».

تحاشت الذهاب إلى وسط البلدة خلال الأيام القليلة التالية، وهي منتبهة طيلة الوقت لوجود «روبرت كينكيد» على مسافة بضعة أميال منها. إذا تحرت الصدق، فإنها لم تعتقد أن بوسعها كبح

جماح نفسها إذا رأته. ربما تركض إليه وتقول: «الآن! لا بد أن نذهب الآن!» لقد جازفت لرؤيته عند جسر «سيدار» من قبل؛ أما الآن فالمجازفة كبيرة جدًّا برؤيته من جديد.

يوم الثلاثاء كانت مؤن الطعام في البيت تناقصت واحتاج «ريتشارد» إلى قطعة غيار من أجل ماكينة حصاد الذرة التي كان يعمل على إصلاحها. كان النهار متلفعًا بغيوم منخفضة خفيفة، وظلت السماء تمطر بإيقاع ثابت، ودرجة الحرارة لطيفة بالنسبة إلى شهر أغسطس.

اشترى «ريتشارد» قطعة الغيار اللازمة له وشرب قهوة مع الرجال الآخرين في أحد المقاهي بينما كانت هي تتسوق البقالة. كان يعرف توقيتها؛ لذلك فقد وجدته عندما انتهت ينتظرها أمام متجر «سوبر فاليو». وثب خارج الشاحنة، واضعًا قبعة عليها شعار شركة تصنيع ماكينات الزراعة «آليس شالمرز» على رأسه، وساعدها في وضع الأكياس في الشاحنة «الفورد»، على المقعد وحول ركبتيها، فتذكرت عندئذ حامل الكاميرا وحقائب الظهر القماشية.

ـ لا بد أن أرجع سريعًا إلى متجر المعدات مرة ثانية، فقد نسيت قطعة أخرى ربما أحتاجها.

اتجها بالشاحنة شمالًا على طريق «الولايات ١٦٩»، والذي يعد الشارع الرئيسي في ونترست. عند أول تقاطع بين المباني جنوب محطة وقود «تكساكو» رأت الشاحنة «هاري» وهي تبتعد عن

مضخات الوقود، ومساحاتها تلطم زجاجها الأمامي بينما تخرج على الطريق أمامهما.

بقوة الدفع صارا خلف شاحنته القديمة مباشرة، وبما أنها كانت جالسة في «الفورد» المرتفعة استطاعت أن ترى القماش المشمَّع الأسود مشدودًا بإحكام في الخلف، ومن تحته تبرز حقيبة الجيتار وجرابه محشورين بجانب الإطار الاحتياطي الفارغ. كان الزجاج الخلفي مبتلًّا بالمطر، غير أن جزءًا من رأسه كان مرئيًّا. مال جانبًا كما لو كان يستخرج شيئًا من التابلوه؛ منذ ثمانية أيام فعل الأمر نفسه ومست ذراعه ساقها مسًّا خفيفًا. ومنذ أسبوع كانت في دي موين تشتري فستانًا زهريًّا.

قال «ريتشارد»:

ـ تلك الشاحنة بعيدة للغاية عن موطنها، من واشنطن. كأن مَن يسوقها امرأة، بهذا الشعر الطويل، على كل حال. لكن مهلًا، تذكرت شيئًا، أراهن أن هذا هو المصور الفوتوغرافي الذي كانوا يتحدثون عنه في المقهى.

تبعا «روبرت كينكيد» لبضعة تقاطعات جهة الشمال حتى بلغا مفترق طرق ما بين طريق «١٩٢» وطريق «٩٣» اللذين يتفرعان شرقًا وغربًا. كانت نقطة ذات أربعة اتجاهات، وهناك الكثير من السيارات في جميع الاتجاهات، وقد تكاثف الضباب واشتد المطر فزادا من تعقد الأمر.

لنحو عشرين ثانية ظلَّا جالسين في هذا الموضع. كان أمامها، على مسافة ثلاثين قدمًا فقط منها. كان لا يزال بوسعها أن تفعل ذلك، أن تنزل وأن تركض نحو باب «هاري» من الجهة اليمنى، وتصعد لتندس وسط الحقائب القماشية والمبرد وحامل الكاميرا.

منذ قاد «روبرت» سيارته بعيدًا عنها يوم الجمعة الماضي، وعلى الرغم من مدى ظنها في ذلك الحين أنه عزيز عليها، فقد أدركت أنها استخفت كثيرًا بحجم مشاعرها نحوه. بدا ذلك أمرًا مستحيلًا، لكنه كان حقيقة. كانت قد بدأت تفهم ما فهمه هو من قبل.

لكنها لبثت في موضعها وقد جمدتها مسؤولياتها، محدقة في ذلك الزجاج الخلفي بقوة تفوق قوة نظراتها إلى أي شيء على الإطلاق طوال عمرها. ومضت إشارة ضوئه اليسرى. في غضون دقيقة سيكون قد ذهب. كان «ريتشارد» يحرك مؤشر راديو الشاحنة.

بدأت ترى الأشياء بالحركة البطيئة، حيلة غريبة من عقلها. بلغ هو منعطفه، و... ببطء... ببطء... قاد «هاري» نحو التقاطع ـ كان بوسعها أن تتخيل ساقيه الطويلتين تعملان على الدواسة والمسرِّع، أن تتخيل عضلات ساعده تنثني بينما يحول السرعة ـ وانعطف يسارًا الآن في طريق «٩٢» نحو مدينة كونسل بلوفس، وجبال «البلاك هيلز»، والشمال الغربي... ببطء... ببطء... الشاحنة «البيك-أب» القديمة تنعطف... بمنتهى البطء تنعطف عبر التقاطع، مولية وجهها شطر الغرب.

ضيَّقت عينيها محدقة خلال الدموع والمطر والضباب، بالكاد استطاعت أن تميز الكتابة الحمراء الحائلة على الباب: «كينكيد، فوتوغرافيا ـ بيلينجهام، واشنطن».

كان قد أنزل زجاج نافذته لمعاونته على تجاوز الرؤية السيئة بينما ينعطف. عبر الناصية فأمكنها أن ترى شعره يتطاير في اللحظة التي بدأ فيها يسرع على امتداد طريق «٩٢»، متجهًا صوب الغرب، ورفع زجاج النافذة بينما يقود مبتعدًا.

ترددت الكلمات في داخلها: «آه، يا رب، آه، يا يسوع المسيح... كلَّا! لقد أخطأت، يا «روبرت»، أخطأت في البقاء... ولكن لا أستطيع أن أذهب... فلأقلها لك مرة أخرى... لماذا لا أستطيع أن أذهب... قل لي مرة أخرى لماذا يجب أن أذهب».

وسمعت صوته يعاودها على الطريق السريع. «في عالم ممتلئ بالغموض، إن هذا النوع من اليقين لا يأتي إلا مرة واحدة فقط، ولا يتكرر أبدًا، ولو عاش المرء أعمارًا فوق عمره».

عبر «ريتشارد» بالشاحنة التقاطع متجهًا صوب الشمال. للحظة خاطفة تطلعت من وراء وجهه نحو الشاحنة «هاري»، وأضواؤها الخلفية الحمراء تختفي وسط الضباب والمطر. بدت «الشفروليه» القديمة صغيرة إلى جانب مقطورة هائلة الحجم تهدر في ونترست، وتنثر موجة من مياه الطريق على راعي البقر الأخير.

همست:

ـ وداعًا، «روبرت كينكيد».

وشرعت تبكي بكاء صريحًا.

تطلع «ريتشارد» إليها.

ـ ماذا بكِ، يا «فراني»؟ ألا تخبريني من فضلكِ ماذا ألمَّ بكِ؟

ـ اتركني لحالي بعض الوقت يا «ريتشارد». دقائق فقط وسأكون بخير.

ضبط «ريتشارد» مؤشر الراديو على تقارير الظهيرة لأخبار الماشية، وتطلع إليها وهزَّ رأسه.

رماد

حلَّ الليل على مقاطعة ماديسون. كان عام ١٩٨٧، يوم ميلادها السابع والستين. ظلت «فرانشيسكا» راقدة على فراشها لساعتين. كان بوسعها أن ترى كل ما حدث قبل اثنين وعشرين عامًا، أن تراه وتلمسه وتذوقه وتسمعه.

تذكرت كل شيء، ثم عادت وتذكرته ثانية. صورة تلك الأضواء الخلفية الحمراء وهي تتجه غربًا في طريق «أيوا ٩٢» وسط المطر والضباب، ظلت تلك الصورة تطاردها لأكثر من عقدين. لمست نهديها وكان بوسعها أن تشعر بملمس عضلات صدره تمسح فوق صدرها. ربَّاه، لقد أحبته كثيرًا. أحبته آنذاك، أكثر مما اعتقدت أنه بالإمكان، بل إنها تحبه الآن أكثر. كانت مستعدة لأن

تفعل أي شيء من أجله إلا أن تدمر أسرتها وربما تدمره هو أيضًا.

نزلت إلى الطابق الأرضي وجلست إلى طاولة المطبخ القديمة ذات الفورمايكا الصفراء. كان «ريتشارد» قد اشترى طاولة جديدة؛ أصرَّ على ذلك. غير أنها أيضًا طلبت الاحتفاظ بالطاولة القديمة في السقيفة، ولفتها بالبلاستيك بكل عناية قبل إبعادها.

كان قد قال متذمرًا وهو يساعدها في نقلها:

ـ لا أرى أي سبب لتعلقكِ الشديد بهذه الطاولة القديمة.

بعد وفاة «ريتشارد»، أعادها «مايكل» إلى المنزل بناء على طلبها ولم يسألها قَطُّ لماذا تستبدلها بطاولة أجدد. فقط نظر إليها نظرة متسائلة، ولم تقل هي شيئًا.

جلست الآن إلى الطاولة. ثم اتجهت إلى الخزانة، وأخرجت شمعتين بيضاوين مع الشمعدانات النحاسية الصغيرة. أشعلت الشمعتين وأدارت الراديو، وأخذت تضبط المؤشر ببطء حتى عثرت على موسيقى هادئة.

وقفت إلى جوار حوض المطبخ وقتًا طويلًا، ورأسها متجه إلى أعلى قليلًا، تطلعت إلى وجهه، وهمست له:

ـ إنني أتذكرك، يا «روبرت كينكيد». ربما كان سيد الصحراء العليا على حق. ربما كنت الأخير من نوعك. ربما صار جميع رعاة البقر على وشك الفناء الآن.

قبل موت «ريتشارد»، لم تحاول قَطّ أن تتصل بـ«كينكيد» أو أن تراسله كذلك، مع أنها ظلت تتأرجح على حافة حادة مثل حد السكين، فتوشك أن تفعل في كل يوم على مدى سنوات. لو أنها تحدثت إليه مرة واحدة أخرى لذهبت إليه. ولو أنها كتبت له كانت تعلم أنه سوف يأتي من أجلها. كان الأمر قريبًا إلى هذه الدرجة. خلال السنوات لم يتصل بها أو يكتب لها مرة ثانية قَطُّ، بعد أن أرسل لها الطرد الذي يحوي الصور الفوتوغرافية والمخطوط. كانت تعلم أنه يتفهم طبيعة شعورها والتعقيدات التي يمكنه أن يسببها في حياتها.

في سبتمبر عام ١٩٦٥ اشتركت في مجلة «ناشيونال جيوغرافيك». نُشر المقال عن الجسور المغطَّاة في العام التالي، وكانت فيه صورة جسر «روزمان» في الضوء الأول الدافئ للصباح الذي عثر فيه على رسالتها القصيرة. وكان غلاف العدد صورته لعربة تجرها الخيول صوب جسر «هوجباك». كان قد كتب نص المقال كذلك.

على غلاف المجلة الخلفي، كانوا يقدمون كُتاب العدد ومصوريه، مع صور لهم بين الحين والآخر. وكانت تجده بينهم في بعض الأحيان، كَما هو، بشَعره الفضي الطويل، وسواره، والجينز أو الكاكي، والكاميرات تتدلَّى من كتفيه، والعروق نافرة من ذراعيه. في كالاهاري، عند جدران جايبور في الهند، في قارب صغير في جواتيمالا، في شمال كندا. الطريق وراعي البقر.

قصت تلك الصور واحتفظت بها في الظرف الأصفر الكبير جنبًا إلى جنب عدد المجلة الخاص بالجسور المغطاة، والمخطوط،

والصورتين الفوتوغرافيتين، ورسالته. وضعت الظرف تحت ثيابها الداخلية في خوان الزينة، مكان لا ينظر «ريتشارد» نحوه أبدًا. ومثل مراقب ما، من مسافة بعيدة، ظلت تتتبع أثره على مدى السنين، وتراقب «روبرت كينكيد» وهو يتقدم في السن.

ظلت الابتسامة على حالها، بل وكذلك الجسد الطويل النحيل والعضلات الجيدة. غير أنها أدركت ذلك من الخطوط الصغيرة حول عينيه، والارتخاء الهين للكتفين القويتين، وترهل الوجه ببطء. فقد درست ذلك الجسد من قرب أكثر مما درست أي شيء آخر في حياتها، بل حتى من جسدها هي. وقد جعلها تقدُّمه في السن تتوق إليه أكثر، إن كان ممكنًا لتوقها أن يكون أكثر. كانت تشعر ـ كلَّا، بل كانت على ثقة ـ أنه يعيش وحده. وقد كان كذلك فعلًا.

على ضوء الشموع، جلست إلى الطاولة وأخذت تتفحَّص القصاصات. كان ينظر عبر الصور متطلعًا إليها من أماكن نائية. وصلت إلى الصورة المميزة من عدد سنة ١٩٦٧، وكان يظهر فيها على شاطئ نهر في شرق أفريقيا، مواجهًا الكاميرا ومقتربًا منها للغاية، مقعيًا على الأرض، ومتأهبًا لأخذ صورة شيء ما.

عندما نظرت إلى هذه القصاصة أول مرة، منذ سنوات، رأت السلسلة الفضية ذاتها حول رقبته لكن الآن مع دلاية معلقة فيها. كان «مايكل» في جامعته بعيدًا عن البيت، وعندما ذهب «ريتشارد» و«كارولين» للنوم أخرجت عدسة مكبرة فائقة القدرة استعان بها «مايكل» مع طوابع البريد التي كان يجمعها صبيًّا، ثم قربت العدسة من الصورة. همست شاهقة:

ـ ربَّاه.

كان اسمها مكتوبًا على الدلاية، «فرانشيسكا»، كانت تلك رعونته الصغيرة الوحيدة، وغفرت له هي ذلك مبتسمة. في جميع الصور بعد ذلك، كانت الدلاية موجودة دائمًا تتدلى من السلسلة الفضية.

بعد عام ١٩٧٥ لم ترَ صورة له في المجلة مرة أخرى قَطُّ. وغاب اسمه إلى جانب أي مقال كذلك. بحثت في كل عدد ولم تجد شيئًا. في ذلك العام بلغ الثانية والستين من العمر.

عندما تُوفِّي «ريتشارد» عام ١٩٧٩، وبعد أن انفضت الجنازة وعاد الولدان كلٌّ إلى بيته، فكرت في الاتصال بـ«روبرت كينكيد». كان في السادسة والستين في ذلك الحين، وهي في التاسعة والخمسين. كان لا يزال ثمة وقت، حتى بعد خسارة أربعة عشر عامًا. أعملت فكرها طويلًا بشأن هذا لمدة أسبوع، وأخيرًا أخذت الرقم المسجل مع بياناته المطبوعة على رأس أوراق قرطاسيته واتصلت به.

كاد قلبها يتوقف عندما بدأ جرس الهاتف يدق. سمعت السماعة وهي تُرفع وأوشكت أن تضع السماعة من جديد وتغلق الخط. قال صوت امرأة:

ـ شركة تأمينات «ماكجريجور».

وَجبَ قلب «فرانشيسكا» لكنها تماسكت بما يكفي لأن تسأل السكرتيرة ما إذا كانت قد اتصلت بالرقم الصحيح، وكان الرقم

صحيحًا. شكرتها «فرانشيسكا» وأغلقت الخط.

بعد ذلك جربت مركز المعلومات في بيلينجهام، واشنطن. لم يكن هناك أي شيء مسجل لديهم. جربت سياتل. لا شيء أيضًا. ثم مقر الغرفة التجارية في بيلينجهام وسياتل. سألتهم إن كان بوسعهم أن يتفقدوا أدلة أرقام وعناوين المدينة، وقد فعلوا ذلك، ولم يكن اسمه مسجلًا. فكرت أنه يمكن أن يكون في أي مكان.

تذكرت المجلة؛ كان أخبرها أن تتصل هناك. كانت موظفة الاستقبال على الهاتف مهذبة ولكن جديدة، وكان عليها أن تجد شخصًا ما ليساعدها في طلبها. تم تحويل اتصال «فرانشيسكا» ثلاث مرات متتالية حتى تحدَّثت مع محرر مساعد يعمل في المجلة منذ عشرين عامًا. سألته عن «روبرت كينكيد».

بالطبع كان المحرر يتذكره.

ـ تحاولين تحديد مكانه إذن، صح؟ لكم كان مصورًا عبقريًّا لعينًا، لا تؤاخذيني. كان مشاكسًا، لكن ليس بشكلٍ مُزعِج، إنما مثابر. كان يسعى وراء الفن من أجل الفن فقط، ولم يكن ذلك يوافق ذوق قرائنا كثيرًا، لأن نوعية القراء لدينا يريدون صورًا لطيفة، صورًا بارعة، ولكن لا شيء شديد الجموح.

لطالما قلنا إن «كينكيد» كان غريبًا قليلًا؛ لم يعرفه أيٌّ منا معرفة وثيقة خارج نطاق العمل الذي كان يؤديه لنا. لكنه كان محترفًا. كان يمكننا أن نرسله إلى أي مكان، وكان سيذهب، حتى لو لم يتفق مع قراراتنا التحريرية في أغلب الأحيان. أما عن مكان

وجوده حاليًّا، فقد كنت أتصفح الملفات بينما نتحدث الآن. لقد ترك المجلة سنة ١٩٧٥. ولديَّ هنا عنوان ورقم هاتف...

قرأهما عليها، المعلومات نفسها التي بحوزة «فرانشيسكا» من قبل. كفت عن المحاولة بعد ذلك، بالأساس لأنها خشيت ما قد تكتشفه.

واصلت الشرود، تاركة نفسها تفكر أكثر وأكثر في «روبرت كينكيد». كان لا يزال بمقدورها أن تقود السيارة جيدًا بما فيه الكفاية، ولعدة مرات كل سنة كانت تذهب إلى دي موين وتتناول الغداء في المطعم الذي اصطحبها إليه. في إحدى خروجاتها تلك، اشترت دفتر كتابة بغلاف جلدي، وعلى تلك الصفحات البيضاء بدأت تسجل بخط أنيق تفاصيل قصة غرامها معه وأفكارها عنه. لزمها ما يقرب من ثلاثة مجلدات من تلك الدفاتر البيضاء قبل أن تشعر بالرضا لأنها أنهت مهمتها.

كانت ونترست تتطور. هناك جمعية فنون نشطة، أغلب أعضائها من الإناث، ولبضع سنين دار حديث حول تجديد الجسور القديمة. شباب مثيرون للاهتمام يبنون بيوتًا لهم في منطقة التلال. صارت الأمور أقل تشددًا، فلم يعد الرجال ذوو الشعر الطويل محط تحديق الآخرين، مع أن ارتداء الرجال للصنادل لم يزل نادرًا والشعراء بينهم عُملة نادرة.

باستثناء عدد قليل من الصديقات، انسحبت تمامًا من المجتمع. علق الناس على هذا، وكيف أنها كثيرًا ما تُشاهَد واقفة عند جسر

«روزمان» وأحيانًا أخرى عند جسر «سيدار». قالوا إن العجائز كثيرًا ما يفعلون أمورًا غريبة، وارتضوا بذلك التفسير.

في الثاني من فبراير عام ١٩٨٢، هدرت شاحنة صغيرة على الممر المؤدي إلى بيتها تابعة لشركة خدمة الطرود المتحدة. بقدر ما تتذكر، لم تطلب توصيل أي شيء. وقَّعت على استمارة استلام الطرد وهي في حيرة ونظرت إلى عنوان المُرسَل إليه:

«فرانشيسكا جونسن»

رر ٢

ونترست، أيوا ٥٠٢٧٣

وكان عنوان المُرسِل شركة قانونية مقرها سياتل.

كان الطرد ملفوفًا بعناية ومزوَّدًا بغلاف حماية إضافي. وضعته على الطاولة وفتحته بحرص. كانت بداخله ثلاثة صناديق، مرصوصة في أمان وسط قِطع مِن لدائن عازلة. على الصندوق الأول أُلصق ظرف صغير مبطَّن. وفي الثاني أُلصق ظرف رسمي موجه إليها ويحمل عنوان الشركة القانونية المرسلة.

أزالت الشريط اللاصق عن الظرف الرسمي وفتحته، وهي ترتعش.

٢٥ يناير ١٩٨٢

السيدة «فرانشيسكا جونسن»

رر ٢

ونترست، أيوا ٥٠٢٧٣

عزيزتنا السيدة «جونسن»:

إننا نمثل تركة السيد «روبرت ل. كينكيد»، الذي تُوفي مؤخرًا...

وضعت «فرانشيسكا» الظرف على الطاولة. كان الثلج يتساقط بالخارج عبر حقول الشتاء، راقبته وهو يكنس الجُذامات المتبقية من الحصاد، ويطير معه قشور الذرة فتتكوم في ركن من السياج. قرأت الكلمات مرة أخرى.

إننا نمثل تركة السيد «روبرت ل. كينكيد»، الذي تُوفي مؤخرًا...

قالت بصوت هش وقد خفضت رأسها:

ـ آه، يا «روبرت»... «روبرت»... كلَّا.

بعد أن مرت ساعة صارت قادرة على مواصلة القراءة. أغضبتها تلك اللغة القانونية المباشرة ودقة تعبيراتها.

إننا نمثل...

مجرد وكيل قانوني يؤدي واجباته نحو موكله.

لكن هو، الفتوة، الفهد الذي أتى من الفضاء ممتطيًا ذيل مُذنَّب، «الشامان» الذي جاء ذات يوم حار من أغسطس ليسأل عن الطريق إلى جسر «روزمان»، الرجل الذي وقف معتليًا مرقاة شاحنة اسمها «هاري» وتطلَّع نحوها وهي تكاد تموت جالسة على تراب الأرض في زقاق مزرعة بولاية أيوا، أين كان في تلك الكلمات؟

كان ينبغي أن تكون رسالة من ألف صفحة. كان ينبغي أن تتكلم عن نهاية سلالم التطور وفقدان المراعي المفتوحة، وعن رعاة البقر وصراعهم ضد الريح التي تكنسهم مثل قشور الذرة عند ركن السياج في الشتاء.

الوصية الوحيدة التي تركها كانت بتاريخ ٨ يوليو ١٩٦٧. وكانت تعليماته واضحة بشأن ضرورة إرسال الأغراض الموجودة في الطرد إليكِ. وفي حال تعذر العثور عليكِ كان لا بد من إحراق كل ما فيه.

تجدين بين محتويات الطرد كذلك صندوقًا مكتوبًا عليه كلمة «خطاب»، وهو رسالة إليكِ تركها لدينا عام ١٩٧٨، وقد أحكم إغلاق الظرف بنفسه، وقد تُرك مغلقًا.

أُحرقت جثة السيد «كينكيد»، وبناء على طلبه لم تترك أي علامة تشير إلى جثمانه في أي موضع. وقد نثر رماده أحد زملائنا، بناء على طلبه أيضًا، قريبًا من منزلكِ. أعتقد أن الموقع يُسمَّى «جسر روزمان».

إذا كان بوسعنا تقديم أي خدمات أخرى لكِ، نرجو ألا تترددي في الاتصال بنا.

ولكِ منا وافر الاحترام،

«آلان ب. كوبين»، وكيل قانوني

هدَّأت إيقاع تنفسها، وجففت عينيها من جديد، وشرعت تتفقد بقية محتويات الصندوق.

كانت تعلم ماذا يوجد في الظرف المبطَّن الصغير. كانت واثقة مما فيه بقدر ثقتها من أن الربيع سوف يحل مجددًا هذا العام. فتحته بحرص وتناولت ما فيه. أخرجت السلسلة الفضية. الدلاية المعلقة فيها كانت مخدوشة وعليها اسمها، «فرانشيسكا»، وعلى ظهر الدلاية حُفرت حروف صغيرة للغاية:

إذا عُثر عليها، برجاء إرسالها إلى «فرانشيسكا جونسن»، رر ٢، ونترست، أيوا، الولايات المتحدة الأمريكية.

كان سِواره الفضي ملفوفًا في منديل ورقي في قاع الظرف، ومع السِّوار ورقة صغيرة، كان خط يدها:

إذا رغبت في تناول العشاء مرة أخرى عندما «تطفو الفراشات البيضاء على أجنحتها»، فلتمر الليلة بعد أن تنتهي من عملك. في أي وقت يناسبك.

إنها رسالتها القصيرة له على جسر «روزمان». حتى تلك الورقة ظل محتفظًا بها من أجل ذكرياته.

تذكرت عندئذٍ أن ذلك كان الشيء الوحيد الذي يحتفظ به منها، دليله الوحيد على أنها كانت موجودة، إلى جانب الصور المراوغة على أفلام التصوير التي تتآكل وتتحلَّل ببطء. رسالتها القصيرة له على جسر «روزمان». كانت ملطخة ومثنية كثيرًا، كما لو حُملت في محفظة نقود لزمن طويل.

تساءلت كم من المرات قرأها خلال السنوات، وهو بعيد للغاية عن هنا، عن التلال الممتدة بحذاء النهر الأوسط. كان بوسعها أن تتخيله يمسك بالورقة أمامه في ضوء نحيل لمصباح قراءة على متن طائرة نفاثة في رحلة بلا توقف إلى مكان ما، أو جالسًا على أرضية كوخ من البامبو في بلدة نائية يقرأ رسالتها على ضوء مصباح يدوي صغير، أو وهو يطويها ويضعها بعيدًا في ليلة ماطرة في بيلينجهام، ثم يتأمل الصور الفوتوغرافية ويتطلع إلى امرأة تستند إلى حاجز السياج في صباح صيفي أو تظهر خارجةً من جسر مغطى وقت الغروب.

كلٌّ من الصناديق الثلاثة اشتمل على آلة تصوير ومعها عدساتها. كانت الكاميرات رثة ومخدوشة. أدارت إحداها بين يديها، وقرأت كلمة «نيكون» على حافة العدسة وعلى الناحية اليسرى فوق علامة «نيكون» تمامًا، الحرف فاء. كانت هذه هي الكاميرا التي ناولته إياها عند جسر «سيدار».

أخيرًا فتحت رسالته. كانت مكتوبة بخط اليد على إحدى صفحات قرطاسيته المزودة ببياناته في الأعلى، ومؤرخة ١٦ أغسطس ١٩٧٨.

عزيزتي «فرانشيسكا»،

أتمنى أن تصلكِ هذه الرسالة وأنتِ في خير حال. لا أدري متى سوف تتلقينها. في وقت ما بعد أن أكون قد رحلت. أنا الآن في الخامسة والستين من عمري، وقد مضى اليوم ثلاثة عشر عامًا منذ أن التقينا عندما اقتربتُ من الممر المؤدي إلى منزلكِ أسأل عن الطريق.

أرجو مجازفًا ألا يعكر هذا الطرد صفو حياتكِ بأي شكل. الحقيقة أنني لم أتحمل فكرة أن ينتهي الحال بآلات التصوير هذه على رف المستعمل في متجر لأدوات التصوير، أو بين يدَي شخص غريب. عند وصولها إليكِ ستكون حالتها سيئة للغاية، لكن ليس لديَّ أي شخص آخر لأتركها له، وأعتذر إذا كنت أعرضكِ لأي خطر بإرسالها إليكِ.

ظللت مسافرًا على الطريق دونما انقطاع تقريبًا من عام ١٩٦٥ حتى ١٩٧٥، لا لسبب سوى أن أنزع من نفسي شيئًا من إغواء الاتصال بكِ أو المجيء بحثًا عنكِ، وهو إغواء ظل يطاردني في كل لحظة يقظة من حياتي، قبلت كل مهمات العمل خارج البلاد التي استطعت العثور عليها. مرت بي أوقات، وهي كثيرة للغاية، قلت فيها لنفسي: «اللعنة على ذلك كله. سوف أذهب إلى

ونترست، في أيوا، وسوف آخذ «فرانشيسكا» معي بعيدًا، مهما كان الثمن».

لكني أتذكر كلماتكِ، وأحترم مشاعركِ. لعلكِ كنتِ على حق؛ لا أعرف فحسب. كل ما أعرفه أن ابتعادي بالسيارة عن الممر المؤدي إلى منزلكِ في صباح يوم الجمعة الحار ذاك، كان أصعب شيء فعلته من قبل وأصعب شيء سوف أفعله من بعد. في الحقيقة، أشك أن يوجد بضعة رجال أقدموا على أي شيء في حياتهم أشق عليهم من ذلك.

تركت «الناشيونال جيوغرافيك» عام ١٩٧٥ وكرست ما تبقى من سنوات عملي في التصوير لأشياء من اختياري أغلب الوقت، أنتقي مهمة صغيرة حيثما استطعت أن أجد، أشياء محلية وفي نطاق البلاد لتبقيني بعيدًا لبضعة أيام فقط كل مرة. كانت أموري المادية عسيرة، لكني أدبر حالي، ودائمًا ما أفعل.

أكثر عملي في نطاق «بيوجت ساوند». يروق لي هذا، ويبدو أنه كلما تقدم الرجال في السن يميلون للتوجه نحو المياه.

آه، صحيح، عندي الآن كلب، «جولدن ريتريفر». أدعوه «هايواي»(*)، وهو يسافر معي معظم الوقت، ورأسه بارز خارج النافذة، بحثًا عن لقطات جيدة لتصويرها.

في عام ١٩٧٢، سقطتُ من فوق جرف شاهق في ولاية ماين، تحديدًا في «حديقة أركاديا الوطنية»، وكُسر كاحلي. وفي

سقوطي قُطعت السلسلة والدلَّاية، لكن لحسن الحظ أنهما لم تقعا بعيدًا. عثرت عليهما من جديد، وجعلت صائغًا يُصلح لي السلسلة.

أعيش بقلب يكسوه الغبار. لعل هذه أفضل طريقة تعبير لديَّ عن شعوري. كانت هناك نساء من قبلكِ، قليلات، ولكن ولا واحدة بعدكِ. لم أقطع عهدًا واعيًا بالعزوبة؛ لم أعد مهتمًّا وحسب.

ذات مرة راقبت ذكر إوز كنديًّا أردى الصيادون أنثاه. كما تعلمين، يقترن الإوز الكندي على مدى الحياة. أخذ الذكر يدور في حلقات فوق البِركة أيامًا، ومن بعد ذلك أيامًا أخرى. حينما رأيته آخر مرة، كان يسبح وحده خلال عيدان الأرز البري، يواصل بحثه عنها. أفترض أن ذلك التشبيه أوضح قليلًا مما قد يستسيغه الذوق الأدبي، لكنه إلى حد كبير ما أشعر به.

في خيالي، في الصباحات الغائمة بالضباب أو الأصائل التي تتزلق فيها الشمس على حافة المياه جهة الشمال الغربي، أحاول أن أفكر أين عساكِ تكونين في حياتكِ وماذا قد تكونين مشغولة به بينما أفكر فيكِ. لا تنشغلين بأمور معقدة؛ تخرجين إلى حديقة المنزل، تجلسين على الأرجوحة في الشرفة الأمامية، تقفين أمام الحوض في مطبخكِ. أمور من هذا القبيل.

إنني أتذكر كل شيء. كيف كانت رائحتكِ ومذاقكِ مثل رائحة الصيف ومذاقه. ملمس بشرتكِ على بشرتي، وصوت همساتكِ بينما أحبكِ.

ذات مرة استخدم «روبرت بين وارن» عبارة «عالم يبدو كأن الله قد هجره». ليس سيئًا، وقريب للغاية مما أشعر به في بعض الأحيان. لكنني لا أقدر على العيش هكذا دائمًا. كلما اشتدت تلك المشاعر أُزود «هاري» بالوقود وأنطلق على الطريق بصحبة «هايواي» لبضعة أيام.

لا أحب إحساس الرثاء للنفس. فذلك ليس من شيمي. وأغلب الوقت لا تكون هذه هي مشاعري. بدلًا من ذلك أشعر بالامتنان لأنني على الأقل قد عثرت عليكِ. ربما مر أحدنا بالآخر سريعًا كأننا ذرتان من الغبار الكوني.

الله أو الكون أو أيًّا كان مَن وضع النظم الكبرى للتوازن والنسق لا يعترف بالزمن الأرضي. في حسابات الكون، أربعة أيام لا تختلف بالمرة عن أربعة مليارات سنة ضوئية. أحاول تذكير نفسي بذلك.

لكنني، على كل حال، مجرد إنسان. وكل المبررات الفلسفية التي يمكنني استحضارها لا تمنعني عن الرغبة فيكِ، في كل يوم، في كل لحظة، وأنا أسمع عويل الزمن في موضع عميق من رأسي، عويلًا لا يرحم لزمن لا يمكنني أن أقضيه معكِ أبدًا.

أحبكِ، بعمق واكتمال. وسوف أظل أحبكِ على الدوام.

راعي البقر الأخير،

«روبرت»

ملاحظة: زودت «هاري» بمحرك جديد الصيف الماضي، وهو بخير حال.

وصلها الطرد منذ خمس سنوات. وقد أصبح تطلعها في محتوياته جزءًا ثابتًا من طقس يوم ميلادها في كل عام. احتفظت بكلٍّ من آلات تصويره وسِواره والسلسلة مع الدلاية في صندوق خشبي مخصوص بالخزانة، طلبت من نجار محلي أن يصنعه وفقًا لتصميمها، من خشب الجوز، مع شرائط مطاطية على الحواف لمنع تسرب الغبار، وأقسام منفصلة ومبطَّنة في الداخل. قال النجار لها:

ـ صندوق فاخر جدًّا.

فاكتفت بالابتسام.

الجزء الأخير من الطقس كان هو المخطوط. دائمًا كانت تقرأه على ضوء الشموع عند نهاية اليوم. أحضرته من غرفة المعيشة ووضعته بكل حرص على سطح الطاولة الفورمايكا الأصفر، قريبًا من شمعة، وأشعلت لها سيجارة العام، من نوع «كاميل»، أخذت رشفة براندي وشرعت تقرأ.

السقوط من البُعد «ي»

«روبرت كينكيد»

ثمة رياح قديمة مازلت غير قادر على فهمها، مع أنني أسافر، منذ الأزل على مايبدو، على طول تموجات أعمدتها الفقرية. إنني

أتحرك داخل البُعد «ي»؛ والعالم يمضي في مكان آخر، في طبقة أخرى من الأشياء، بالموازاة معي. كما لو كنت أرى العالم عبر زجاج واجهة عرض أحد المتاجر، ويداي في جيبي، مائلًا إلى الأمام قليلًا، ومتطلعًا إلى الداخل.

تمر لحظات غريبة في البُعد «ي». يمتد أمامي طريق طويل ممطر، منحنى نيو مكسيكو غرب ماجدالينا، حين يتحول الطريق السريع إلى درب للمشاة ويتحول الدرب إلى سكة للدواب. مسحة من مسَّاحات الزجاج، والسكة تصير موضعًا في غابة لم يصله أي شيء قَطُّ. من جديد تعمل مسَّاحات الزجاج، ومن جديد، ثمة شيء وراء ذلك. ثلج هائل، هذه المرة. إنني أتحرك خلال عشب قصير، مرتديًا فراء حيوانات، وملبد الشعر، وممسكًا برمح، نحيلًا وصلبًا مثل الثلج نفسه، وجسمي مكتنز بقوة عضلية وبمهارة لا تُقهر. وراء الثلج، على درجة أبعد إلى الوراء في سلَّم الكائنات، مياه مالحة عميقة أسبح فيها، ولي خياشيم ومغطى بالقشور. لا يمكنني أن أرى أبعد من ذلك، سوى أنه فيما وراء العوالق لا يوجد غير الرقم صفر.

لم يكن إقليدس على صواب دائمًا، فقد افترض وجود التوازي، بثبات، حتى نهاية الأشياء؛ غير أن طريقة لا-إقليدية في الوجود ممكنة أيضًا، حيث تجتمع الخطوط معًا، هناك في نقطة بعيدة للغاية. نقطة تلاشٍ. وهمُ الالتقاء.

ومع ذلك فإنني أعرف أنه أكثر من مجرد وهم. أحيانًا يكون التقاء المتوازيَين شيئًا ممكنًا، إذ ينسكب واقعٌ ما في آخر. نوع من تشابك ناعم. ليست تقاطعات حادة منسوجة في عالم تحكمه الدقة،

ولا صوت المكوك الذي ينسجها معًا. فقط... حسنًا... تنفُّس. نعم، هذا صوته، وربما الإحساس به، أيضًا. تنفُّس.

وأنا أتحرك ببطء فوق هذا الواقع الآخر، وإلى جانبه ومن تحته وحواليه، دائمًا في قوة، دائمًا في طاقة، ولكن دائمًا مع إعطاء نفسي له. والآخر يشعر بهذا، فيقترب بطاقته الخاصة، معطيًا نفسه لي، بدوره.

في موضع ما، داخل التنفس، تبزغ أصوات موسيقى وتبدأ عندئذٍ الرقصة اللولبية الغريبة، بإيقاع فريد يهدئ رجل الثلج ذا الرمح والشعر الملبد. وببطء ـ دورانٌ وتقلبٌ في آداجيو، دائمًا ـ يسقط رجل الثلج... من البُعد «ي»... إلى داخلها.

في نهاية يوم ميلاد «فرانشيسكا» السابع والستين، وعندما توقف المطر، وضعت الظرف الكبير في الدرج الأدنى من المكتب ذي الغطاء القابل للرفع. بعد موت «ريتشارد» اتخذت قرارًا بأن تحتفظ به في صندوق الودائع الخاص بها في البنك لكنها تحضره إلى البيت لبضعة أيام كل عام في مثل هذا الوقت. غطاء صندوق خشب الجوز أُحكم إغلاقه على آلات التصوير، ووضع الصندوق نفسه على أحد أرفف خزانة الثياب في غرفة نومها.

في وقت سابق من هذا الأصيل، كانت قد زارت جسر «روزمان». خرجت الآن إلى الشرفة، وجففت الأرجوحة بمنشفة وجلست. كان الجو باردًا، ولكنها سوف تمكث لبضع دقائق، كما كان عهدها على الدوام. ثم سارت خارجة نحو بوابة الفناء ووقفت هناك. ثم توجهت نحو طرف الممر المؤدي إلى منزلها.

بعد اثنتين وعشرين سنة، كان يمكنها أن تراه ينزل من شاحنته في آخر الأصيل، محاولًا أن يجد طريقه؛ وكان يمكنها أن ترى شاحنته «هاري» تصعد وتهبط متجهة نحو الطريق الزراعي، ثم تتوقف، و«روبرت كينكيد» يقف على مرقاة باب الشاحنة ويرسل البصر إلى الوراء، نحو الممر.

(*) الطريق السريع. (المترجم).

رسالة من «فرانشيسكا»

تُوفيت «فرانشيسكا جونسن» في يناير ١٩٨٩. كانت قد بلغت التاسعة والستين من عمرها عندئذٍ. ولو كان «روبرت كينكيد» لا يزال حيًّا لكان بلغ السادسة والسبعين في ذلك العام. في السجلات الرسمية سُجلت الوفاة «طبيعية»، وكما قال الطبيب لـ«مايكل» و«كارولين»:

ـ لقد ماتت وحسب. والحقيقة، قد انتابنا قليل من الحيرة. لم نستطع أن نجد أي سبب محدد لوفاتها. وجدتها إحدى الجارات جالسة في المطبخ وهي محنية على المائدة.

في رسالة من «فرانشيسكا» إلى وكيلها القانوني عام ١٩٨٢، أعربت عن رغبتها في أن يُحرق رفاتها وأن يُنثر رمادها عند جسر «روزمان». كان إحراق رفات الموتى عادة غير شائعة في

مقاطعة ماديسون ـ واعتُبر فعلًا متطرفًا قليلًا، على نحو غير محدد ـ فأثارت أمنيتها تلك نقاشًا لا بأس به في المقهى، وفي محطة وقود «تكساكو»، وفي متجر المعدات. لم يُنثر رمادها علنًا.

بعد انتهاء طقوس العزاء، استقل «مايكل» و«كارولين» السيارة واتجها ببطء إلى جسر «روزمان» ونفذا تعليمات «فرانشيسكا». مع أن هذا الجسر كان قريبًا من بيتهم، فلم يكن له قَطُّ مكانة خاصة عند أسرة «جونسن»، وهكذا فقد تساءلا، مرة بعد أخرى، لماذا قد تتصرف أمهما، السيدة العاقلة، بمثل هذه الطريقة الغامضة، ولماذا لم تطلب أن تُدفن إلى جانب أبيهما، كما جرت العادة.

بعد أن فرغ «مايكل» و«كارولين» من ذلك، شرعا في المهمة الطويلة لفرز محتويات المنزل، وأيضًا استعادة الأغراض المودعة في صندوق أمانات البنك بعد أن فحصها الوكيل القانوني المحلي لأسباب جرد التركة ثم أُفرج عنها.

تقاسما الأغراض الموجودة في الصندوق وبدآ يتفحصانها. كان الظرف الكبير من نصيب «كارولين»، عثرت عليه بعد ثلث الكومة تقريبًا. استولت عليها الحيرة عندما فتحته وأفرغته من محتوياته. قرأت رسالة «روبرت كينكيد» إلى «فرانشيسكا» من عام ١٩٦٥. بعد ذلك قرأت رسالته من عام ١٩٧٨، ثم رسالة ١٩٨٢ من الوكيل القانوني، وأخيرًا أخذت تتفحص قصاصات المجلة.

ـ «مايكل».

سمع في صوتها مزيجًا من الدهشة والهم، فرفع بصره إليها على الفور:

ـ ما الأمر؟

كانت عينا «كارولين» مغرورقتين بالدموع، وصوتها أخذ يتهدج:

ـ أمنا كانت على علاقة حب مع رجل يدعى «روبرت كينكيد». كان مصورًا فوتوغرافيًّا. هل تتذكر عندما رأينا جميعًا ذلك العدد من مجلة «ناشيونال جيوغرافيك» الخاص بتحقيق الجسور المغطَّاة؟ كان هو مَن التقط صور الجسور هنا. وتتذكر كيف كان جميع الأولاد يتحدثون حينذاك عن ذلك الرجل غريب المظهر ذي الكاميرات؟ كان ذلك هو.

كان «مايكل» جالسًا قبالتها، وربطة عنقه محلولة، وياقة قميصه غير مزررة.

ـ كرري ما قلتِه، لكن ببطء. فأنا لا أصدق أنني سمعت بشكل صحيح.

بعد قراءة الرسائل، بحث «مايكل» في الخزانة الموجودة بالطابق الأرضي، ثم صعد إلى غرفة نوم «فرانشيسكا». لم يكن قد لاحظ الصندوق المصنوع من خشب الجوز قبل ذلك قَطُّ، ففتحه، وحمله إلى أسفل، إلى طاولة المطبخ.

ـ ها هي آلات التصوير الخاصة به، يا «كارولين».

في أحد طرفَي الصندوق، وجدا ظرفًا مختومًا ومكتوبًا عليه بخط يد «فرانشيسكا»:

«كارولين» أو «مايكل»

وما بين آلات التصوير وجدا ثلاثة دفاتر كتابة ذات أغلفة جلدية.

قال «مايكل»:

ـ لست واثقًا من أنني قادر على قراءة ما يوجد داخل ذلك الظرف. اقرئيه أنتِ عليَّ، إن كان بوسعكِ.

فتحت الظرف وقرأت جهرًا.

٧ يناير ١٩٨٧

العزيزان «كارولين» و«مايكل»،

على الرغم من أنني أشعر بأن صحتي على ما يرام، فإني أعتقد أن الوقت قد حان لترتيب أموري (كما يقولون). لا بد من أن تعرفا أمرًا ما، أمرًا في غاية الأهمية. ذلك هو سبب كتابتي هذه الرسالة.

بعد أن تتفقدا محتويات صندوق الأمانات في البنك، وبعد أن تعثرا على الظرف الكبير الموجه لي بتاريخ ١٩٦٥، أنا واثقة أنكما

سوف تصلان في نهاية الأمر إلى هذه الرسالة. إن كان بوسعكما هذا، فإني أرجوكما أن تجلسا إلى طاولة المطبخ القديمة لقراءتها. وسوف تفهمان سبب طلبي ذلك بعد قليل.

من الصعب عليَّ أن أكتب هذا لولديَّ، لكن ينبغي عليَّ ذلك. ثمة شيء هنا أشد قوة، وأشد جمالًا، من أن يموت بموتي. وإذا كنتما تريدان أن تعرفا مَن كانت أمكما، بحسناتها وسيئاتها، فعليكما أن تعرفا ما أنا بصدد قوله لكما، فتمالكا نفسيكما.

كما اكتشفتما بالفعل، كان اسمه «روبرت كينكيد». واسمه الأوسط يرمز له بحرف «لام»، لكني لم أعرف قَطُّ إلى أي اسم يشير حرف اللام ذلك. كان مصورًا فوتوغرافيًّا، وكان هنا في عام ١٩٦٥ لتصوير الجسور المغطَّاة.

لعلكما تتذكران موجة الحماسة التي سَرت في البلدة عند نشر الصور في مجلة «ناشيونال جيوغرافيك». وربما تتذكران أيضًا أنني بدأت أتلقى المجلة منذ ذلك الوقت تقريبًا. الآن تعرفان سر اهتمامي المفاجئ بها. بالمناسبة، لقد كنتُ معه (أحمل إحدى حقيبتَي الكاميرات الخاصة به) عندما التُقطت صورة جسر «سيدار».

لا بد أن تفهما أنني أحببت والدكما، أحببته حبًّا هادئًا. كنت أعلم هذا الأمر آنذاك، وأعلمه الآن. كان طيبًا معي ومنحني إياكما، وأنتما كنزي. فلا تنسيا ذلك أبدًا.

لكن «روبرت كينكيد» كان شيئًا مختلفًا تمامًا. لم أرَ طوال حياتي كلها أي شخص مثله، ولا سمعت أو قرأت عن شخص مثله. ومن المستحيل عليَّ أن أجعلكما تفهمانه تمام الفهم. أولًا، أنتما لستما أنا. وثانيًا، كان لا بد أن تكونا قريبين منه، وأن ترياه وهو يتحرك، وأن تسمعاه وهو يتحدث عن كونه على فرع مكتوب عليه الاندثار من فروع التطور. ربما سوف تساعدكما الدفاتر وقصاصات المجلة على هذا، لكن حتى ذلك كله لن يكون كافيًا.

فهو، على نحوٍ ما، لم يكن ينتمي إلى هذه الأرض. وهذه أوضح صيغة ممكنة لأعبر بها عن الأمر. لطالما فكرت فيه كمخلوق يشبه الفهود، مخلوق دخل ممتطيًا ذيل مذنَّب. فهكذا كان يتحرك، وهكذا كان يبدو جسده. فقد قرن بطريقة ما بين القوة الهائلة والدفء والطيبة الهائلين، وكان فيه إحساس غامض بالمأساة. شعر بأنه يصير باليًا وسط عالم أجهزة الكمبيوتر والروبوتات والعيش المنظم على وجه العموم. رأى نفسه واحدًا من آخر رعاة البقر، كما قال، ودعا نفسه بـ«عتيق الطراز».

أول مرة رأيته فيها على الإطلاق عندما توقف ليسأل عن الطريق إلى جسر «روزمان». كنتم أنتم الثلاثة في معرض ولاية إلينوي. وصدقاني، لم أكن أستطلع في الأرجاء بحثًا عن أي مغامرة، ذلك كان أبعد ما يخطر لي على بال. لكني نظرت إليه لأقل من خمس ثوانٍ، وعرفت أنني راغبة فيه، لكن ليس بقدر تلك الرغبة التي استولت عليَّ في نهاية الأمر.

وأرجو منكما ألا تظنا أنه «كازانوفا» من ذلك النوع الذي يركض هنا وهناك لكي يغرر بالريفيات. فهو لم يكن كذلك على

الإطلاق. وحقيقة الأمر، أنه كان على شيء من الخجل، وأنني كنتُ سببًا فيما حدث بيننا بقدر ما كان هو. بل أكثر منه، في الواقع. ستجدان رسالتي القصيرة له مطوية مع سِواره الفضي، إنها الرسالة التي وضعتها على جسر «روزمان» بحيث يمكنه أن يراها في الصباح التالي بعد لقائنا الأول. إلى جانب صوره الفوتوغرافية لي، فإن تلك الرسالة هي البرهان الوحيد الذي كان لديه طوال السنوات على أنني وُجِدت في حياته حقًّا، وأنني لم أكن مجرد حلم راوده.

أعلم أن الأبناء يميلون للاعتقاد بأن آباءهم وأمهاتهم كائنات لا علاقة لها بالجنس تقريبًا، لذلك أتمنى ألا يصدمكما ما سأقوله لكما، وبكل تأكيد أتمنى ألا يدمر ذكرياتكما عني.

في مطبخنا القديم، قضيت أنا و«روبرت» ساعات معًا. تحدثنا ورقصنا على ضوء الشموع. ونعم، مارسنا الحب هناك وفي غرفة النوم وفوق عشب المرعى وفي كل موضع آخر تقريبًا يمكن لكما أن تتخيلاه. كانت ممارسة غير معقولة، قوية، فاقت كل حد، وقد تواصلت لأيام، من غير انقطاع تقريبًا. دائمًا ما استخدمت صفة «القوة» كثيرًا عند التفكير فيه، فذلك ما كان عليه عندما التقينا.

كان مثل السهم حدةً، أما أنا فببساطة كنت بلا حول ولا قوة عندما يضاجعني. لم أكن ضعيفة؛ فلم يكن ذلك ما شعرت به. لكن، شعرت فقط بأنني مغمورة بقوته الخالصة، قوته العاطفية والبدنية. ذات مرة همست بذلك له، فقال ببساطة:

ـ أنا الطريق السريع والصقر وكل الأشرعة التي خاضت عباب البحر ذات يوم.

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها تلك الكلمة(**) فبحثتُ عنها في القاموس. أول ما يخطر ببال الناس عند سماعها هو «الصقر». لكني وجدت لها معاني أخرى، وقد كان واعيًا بذلك. أحد معانيها «أجنبي، غريب». ومعنى آخر «طوَّاف، جوَّال، رحَّال». والمفردة اللاتينية «peregrinus»، وهي أحد جذور هذه الكلمة، تعني «غريب». وقد كان هو جميع تلك الأشياء؛ غريبًا، أجنبيًّا بالمعنى الأعم للكلمة، وجوَّالًا، وقد كان أيضًا شبيهًا بالصقر، ذلك ما أعتقده الآن.

يا ولديَّ، أرجو أن تتفهما أنني أحاول التعبير عما لا تحيط به الكلمات. أتمنى فقط أن يحظى ربما كلٌّ منكما ذات يوم بما عشته أنا؛ مع أنني بدأت أعتقد أن هذا بعيد الاحتمال. على الرغم من أنني أفترض أنه ليس رائجًا التصريح بمثل تلك الأمور في هذه الأزمنة الأكثر استنارة، فلا أظن أنه من المحتمل لامرأة ما أن تحتوي النوع الفريد من القوة التي امتلكها «روبرت كينكيد». وهكذا يا «مايكل»، فإن هذا لا يسري عليك. أما أنتِ يا «كارولين»، فأخشى أن الخبر السيئ هو أنه لا يوجد من نوع هذا الرجل إلا واحد فقط، لا أكثر.

لولاكما أنتما ووالدكما، لذهبت معه إلى أي مكان، في الحال. وقد طلب مني أن أذهب معه، بل توسل إليَّ. لكني لم أفعل، وكان شخصًا مفرط الحساسية والمراعاة للآخرين بحيث لا يسمح لنفسه أن يقحم نفسه في حياتنا بعد ذلك.

المفارقة هي هذا: لولا وجود «روبرت كينكيد»، لستُ واثقة إن كان بوسعي أن أبقى في المزرعة طيلة كل تلك السنوات. منحني، في أربعة أيام فقط، عمرًا كاملًا، عالمًا، وجمع أجزائي المشتتة فجعلها كلًّا واحدًا. لم أتوقف قَطُّ عن التفكير فيه، ولا للحظة واحدة. حتى حين لم يكن حاضرًا في عقلي الواعي، كنت أشعر بوجوده في موضع ما، كان هناك على الدوام.

لكن هذا كله لم ينتقص شيئًا مما كنت أشعر به نحوكما أو نحو أبيكما. إذا ما فكرت للحظة في نفسي وحسب فلن أكون واثقة من أنني اتخذت القرار الصحيح. لكن ما إن أضع الأسرة في الحسبان فكلي يقين من صحة قراري.

ومع ذلك فلا بد أن أكون أمينة معكما وأن أخبركما أن «روبرت»، منذ البداية مباشرة، قد فهم خيرًا مني ماذا شكَّل كلانا عند اجتماع كلٍّ منا بالآخر. أعتقد أنني قد بدأت فقط أستوعب أهمية ذلك مع مرور الوقت، شيئًا فشيئًا. لو أنني فهمت ذلك كما ينبغي، عندما كان قبالتي وجهًا لوجه وطلب مني الذهاب معه، لكنت رحلت معه على الأرجح.

آمن «روبرت» بأن العالم أصبح عقلانيًّا أكثر مما ينبغي، وكف عن الثقة في السحر بقدر ما ينبغي، وكثيرًا ما تساءلت إن كنت أنا أيضًا عقلانية أكثر مما ينبغي عند اتخاذ قراري.

أنا واثقة أنكما سوف تريان مطلبي بخصوص رفاتي عصيًّا على الفهم، وسوف تظنان أنه ربما ليس إلا ثمرة ذهن مضطرب لامرأة عجوز. بعد أن تقرآ رسالة الوكيل القانوني في عام ١٩٨٢

ودفاتري، سوف تفهمان سبب مطلبي ذلك. لقد وهبت حياتي لأسرتي؛ وأهب «روبرت كينكيد» ما تبقى مني.

أحسب أن «ريتشارد» قد أدرك وجود شيء ما في داخلي لا يمكنه أن يصل إليه، وأتساءل في بعض الأحيان إن كان قد عثر على الظرف الكبير وقت احتفاظي به في البيت في خوان الزينة. قُبيل وفاته، كنت جالسة إلى جانبه في مستشفى دي موين، عندما قال لي:

ـ «فرانشيسكا»، أنا أعرف أنكِ أنتِ أيضًا كانت لكِ أحلامكِ الخاصة. وأنا آسف لأنني لم أستطع أن أحققها لكِ.

كانت تلك أكثر لحظة مؤثرة في حياتنا معًا.

لا أريد أن أجعلكما تشعران بالذنب أو الرثاء لحالي أو أيٍّ من مثل تلك الأشياء. هذا ليس هدفي هنا بالمرة، أردت فقط أن تعرفا كم أحببت «روبرت كينكيد». وقد تعاملت مع هذا الأمر يومًا بعد يوم، كل تلك السنين، تمامًا كما فعل هو.

مع أننا لم نتبادل الحديث بعد ذلك أبدًا، فقد بقينا مرتبطين معًا برباط وثيق بأقصى ما يمكن لشخصين أن يرتبطا. لا أستطيع أن أجد الكلمات التي تعبر عن هذا كما ينبغي، لكنه هو استطاع أن يعبر عنه كأفضل ما يكون حينما قال لي إننا لم نعد كائنين منفصلين، وبدلًا من ذلك فقد صرنا مخلوقًا ثالثًا تشكَّل منا نحن الاثنين معًا. لم يعد لأي منا وجود مستقل عن ذلك المخلوق. وذلك المخلوق تُرك بلا رعاية.

«كارولين»، أتذكرين الجدال الرهيب بيننا ذات مرة بخصوص الفستان ذي اللون الزهري الفاتح في خزانة ثيابي؟ كنتِ قد رأيتِه وأردتِ أن ترتديه. قلتِ إنكِ لا تتذكرين أنني ارتديته قَطُّ، فلماذا لا يُضبط ليناسب قياسكِ؟ كان ذلك هو الفستان الذي ارتديت في الليلة الأولى التي مارسنا فيها الحب أنا و«روبرت». طوال حياتي كلها لم أظهر بهذا القدر من الجمال كما كنت في تلك الليلة. كان الفستان هو ذكراي الصغيرة الحمقاء عن ذلك الوقت. لذلك لم أرتدِه مرة ثانية قَطُّ ولذلك لم أسمح لكِ بارتدائه.

بعد أن رحل «روبرت» عن هنا في عام ١٩٦٥، أدركت أنني لم أعرف عنه إلا أقل القليل، من ناحية تاريخ أسرته. مع أنني أعتقد أنني عرفت كل شيء آخر تقريبًا عنه ـ أي كل شيء يمكن أن يُعتد به ـ في تلك الأيام المعدودة القصيرة. كان ابنًا وحيدًا، كلا والديه قد تُوفي، وُلد في بلدة صغيرة في ولاية أوهايو.

إنني حتى لا أدري إن كان قد ذهب إلى الجامعة أو التحق بالتعليم الثانوي، لكنه كان ذكيًّا ذكاءً مبهرًا بطريقة فجة، وبدائية، بل تكاد تكون روحانية. نعم، صحيح، كان مصورًا للمعارك الحربية في سلاح البحرية الأمريكية في جنوب المحيط الهادي خلال الحرب العالمية الثانية.

تزوج مرة واحدة وطلَّق زوجته، قبل أن نلتقي بفترة طويلة. لم يكن لديه أطفال. كانت زوجته موسيقية من نوع ما، تغني الأغنيات الشَّعبية القديمة على ما أتذكر قوله لي، وكانت فترات غيابه الطويلة عن البيت في مهام تصوير في مناطق بعيدة

أصعب من أن يحتملها زواجهما. وقد حمَّل نفسه مسؤولية انفصالهما كاملة.

عدا ذلك، لم يكن لـ«روبرت» أسرة، بقدر ما أعلم. وأطلب منكما أن تجعلاه جزءًا من أسرتنا، مهما بدا لكما ذلك عسيرًا في بداية الأمر. أنا كان لديَّ أسرة على الأقل، وحياة عشتها مع آخرين، أما «روبرت» فكان وحيدًا. وقد علمت أن هذا ليس من الإنصاف في شيء.

أُفضل، أو هذا ما أظنه على الأقل، حرصًا على ذكرى «ريتشارد» وميل الناس للقيل والقال، أن يبقى كل هذا في داخل أسرة «جونسن»، بطريقة ما. ومع هذا، سأترك الأمر لتقديركما.

على أي حال، أنا بكل تأكيد لا يساورني أي خجل مما عشناه أنا و«روبرت كينكيد» معًا. بل على العكس. لقد أحببته لآخر حد خلال كل تلك السنين، ومع ذلك، ولأسباب تخصني، لم أحاول الاتصال به سوى مرة واحدة فقط. كانت تلك المرة بعد وفاة والدكما. أخفقت محاولتي، وخشيت من أن يكون قد حلَّ به شيء ما، ولهذا لم أكرر المحاولة بعد ذلك أبدًا، بدافع من ذلك الخوف. ببساطة لم أستطع مواجهة تلك الحقيقة. وعلى هذا يمكن لكما أن تتخيلا طبيعة مشاعري عندما وصل الطرد مع رسالة الوكيل القانوني سنة ١٩٨٢.

كما قلت، أتمنى أن تتفهما وألا تظنا سوءًا بي. إذا كنتما تحباني فلا بد أن تحبَّا ما فعلت.

لقد علمني «روبرت كينكيد» معنى أن أكون امرأة، على نحو لن تختبره إلا حفنة قليلة من النساء، أو ربما لن تعيشه امرأة أخرى على الإطلاق. كان مرهفًا ودافئًا، وهو بلا شك جدير باحترامكما وربما بمحبتكما. وأتمنى أن يكون بمقدوركما أن تمنحاه كليهما. فقد أحسن إليكما، من خلالي أنا، وإنْ على طريقته الخاصة.

وداعًا يا ولديَّ.

أمكما

حلَّ الصمت على المطبخ القديم. أخذ «مايكل» نفسًا عميقًا وتطلَّع ناظرًا من النافذة. أدارت «كارولين» بصرها تتأمل ما حولها، حوض المطبخ، الأرضية، الطاولة، وكل شيء آخر.

عندما تحدثت كاد صوتها يخرج همسًا:

ـ آه، يا «مايكل»، يا «مايكل»، تخيلهما طوال كل تلك السنين، وكلٌّ منهما يرغب الآخر في استماتة. لقد تخلت عنه من أجلنا ومن أجل أبينا. وهو، «روبرت كينكيد»، ظل بعيدًا احترامًا لمشاعرها نحونا. لا أستطيع حتى يا «مايكل» أن أتعامل مع مجرد التفكير في هذا. كل منا يتعامل مع زواجه باستهانة بالغة، وقد كنا في لحظة ما أحد الأسباب في أن تنتهي علاقة حب غير معقولة على هذا النحو.

حظيا معًا بأربعة أيام، أربعة أيام فقط. من عمر كامل. كان ذلك بينما نحن في معرض الولاية السخيف في إلينوي. انظر إلى

صورة ماما. لم أرها أبدًا على هذا النحو، ما أجملها، وليس هذا بسبب الصورة نفسها، بل هذا ما فعله هو لها.

انظر إليها فقط، جامحة وحرة. يتطاير شعرها المنساب في الريح، ووجهها ينبض بالحياة. تبدو رائعة وفقط.

ـ ربَّاه.

كان ذلك كل ما استطاع «مايكل» أن يتفوه به، ومسح عرق جبينه بمنشفة مطبخ ومرَّ بها على عينيه عندما لم تكن «كارولين» ناظرة إليه.

تحدثت «كارولين» مرة ثانية:

ـ من الواضح أنه لم يحاول الاتصال بها كل تلك السنين. ولا بد أنه مات وحيدًا؛ لذلك طلب إرسال آلات التصوير إليها.

أتذكر شجارنا ذلك أنا وماما بسبب الفستان الزهري. استمر لأيام، وأخذت أضغط وألح أيامًا وأسأل عن السبب. ثم امتنعت عن الكلام معها. وكان كل ما قالته لي:

ـ لا، يا «كارولين»، ليس هذا الفستان.

وتذكر «مايكل» الطاولة القديمة التي كانا جالسين إليها، وأدرك السبب وراء طلب «فرانشيسكا» منه أن يعيدها مرة أخرى إلى المطبخ بعد وفاة والده.

فتحت «كارولين» الظرف الصغير المبطّن.

ـ ها هو سِواره وسلسلته والدلاية. وها هي الرسالة القصيرة التي ذكرتها أمي في رسالتها لنا، الرسالة التي علقتها على جسر «روزمان». لهذا السبب تظهر في صورة الجسر التي أرسلها قطعة من ورق مثبتة عليه.

ماذا عسانا أن نصنع يا «مايكل»؟ فكر في هذا للحظة؛ سأعود بعد قليل.

أسرعت إلى الطابق العلوي وعادت بعد دقائق قليلة وهي تحمل الفستان الزهري مطويًّا بعناية في غلاف بلاستيكي. أخرجته ورفعته أمام «مايكل» لكي يراه.

ـ فقط تخيلها مرتدية هذا وهي ترقص معه هنا في المطبخ. فكِّر في كل الوقت الذي قضياه هنا وكل الصور التي لا بد قد راودتها بينما هي تطبخ الطعام أو جالسة هنا معنا، تتحدث عن مشكلاتنا، وأي جامعة سندخل، وكم من الصعب أن نعيش زواجًا ناجحًا. ربَّاه، إننا في غاية البراءة والسذاجة مقارنةً بها.

أومأ «مايكل» والتفت نحو الخزانة فوق الحوض.

ـ هل تظنين أن أمنا تحتفظ هنا بأي شيء يمكن أن نشربه؟ يعلم الله كم أحتاج إلى كأس. أما سؤالكِ، فأنا لا أعرف ماذا علينا أن نصنع.

نبش قليلًا في الخزانة ووجد زجاجة براندي، تكاد تكون فارغة.

ـ فيها ما يكفي لكأسين هنا، يا «كارولين»، تريدين شرابًا؟

ـ نعم.

أخرج «مايكل» الكأسين الوحيدتين الصالحتين لشرب البراندي من الخزانة ووضعهما على الطاولة ذات سطح الفورمايكا الأصفر. أفرغ في الكأسين آخر زجاجة براندي تخص «فرانشيسكا»، بينما بدأت «كارولين» تقرأ في صمت الدفتر الأول من دفاتر أمهما.

أتى «روبرت كينكيد» إليَّ في السادس عشر من أغسطس، وكان يوم الاثنين، عام ١٩٦٥. كان يحاول أن يجد طريقه إلى جسر «روزمان». كان آخر الأصيل، والجو حار، وكان يقود شاحنة «بيك-أب» يسميها «هاري»...

(**) الكلمة المقصودة هنا هي: «Peregrine». (المترجم).

ملحق
«صقر الليل» في تاكوما

بينما كنت أكتب قصة «روبرت كينكيد» و«فرانشيسكا جونسن»، انتابني مزيد ومزيد من الفضول نحو «كينكيد» ومسألة أن أحدًا منا لا يعرف عنه وعن حياته إلا أقل القليل. فقط قبل أسابيع قليلة من إرسال الكتاب للطباعة، أخذت طائرة إلى سياتل وحاولت مجددًا أن أكشف معلومات إضافية عنه.

خطرت لي فكرة للبحث، فبما أنه كان يحب الموسيقى، وهو نفسه كان فنانًا، فلعل هناك شخصًا يعرفه من المشتغلين في مجال الموسيقى والفنون في منطقة «بيوجيت ساوند». كان المحرر الفني لصحيفة «سياتل تايمز» مفيدًا لي، ومع أنه لم يكن يعرف شيئًا عن «كينكيد» فقد أتاح لي فرصة الاطلاع على أقسام ذات

صلة من الصحيفة من عام ١٩٧٥ إلى ١٩٨٢، وهي الفترة محل اهتمامي.

بينما كنت أتصفح أعداد العام ١٩٨٠، مررت بصورة لموسيقي جاز أسود البشرة، عازف على ساكسفون التينور اسمه «جون «نايتهوك»(***) كمنجز». وإلى جانب الصورة كان السطر الذي يشير للمصور باسم «روبرت كينكيد». زودتني النقابة المحلية للموسيقيين بعنوان «كمنجز»، وأبلغوني هناك بأنه لم يعد نشطًا في العزف منذ بضع سنين. كان العنوان في شارع جانبي بالقرب من المنطقة الصناعية في تاكوما، قريبًا للغاية من الطريق السريع «٥» نزولًا من سياتل.

لزمتني عدة زيارات إلى منزله قبل أن أجده هناك. أبدى في مستهل الأمر حذرًا إزاء استفساراتي، غير أنني أقنعته أنني مهتم بـ«كينكيد» اهتمامًا جادًّا وحميد النية، فأصبح ودودًا بعد ذلك وتحدث بانطلاق. فيما يلي هذا نسخة مكتوبة ومحررة بتصرف هين لمقابلتي مع «كمنجز»، الذي كان في السبعين من عمره وقت حديثي إليه. أدرت ببساطة مسجِّل الكاسيت الخاص بي وتركته يحكي لي عن «روبرت كينكيد».

(***) صقر الليل، أو مَن يحب سهر الليل. (المترجم).

مقابلة مع «نايتهوك كمنجز»

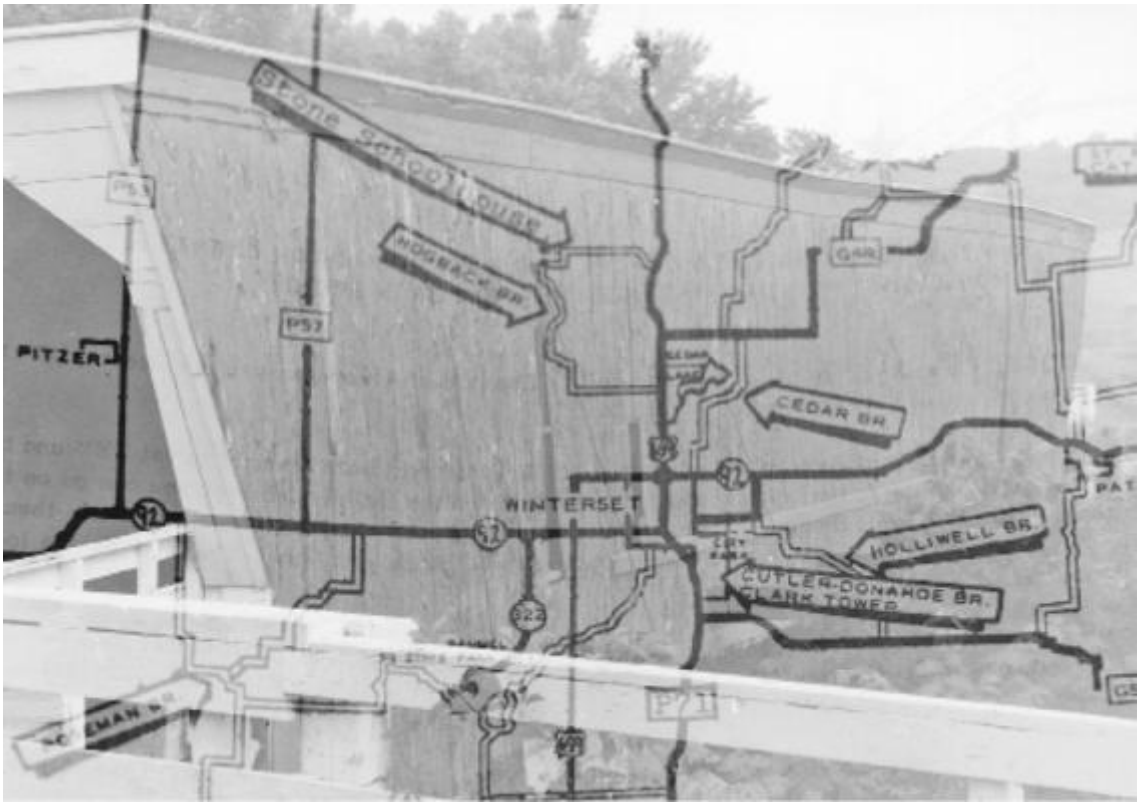

كنت أقدم عرضًا موسيقيًّا في مكان اسمه «شورتي»، في سياتل حيث كنت أعيش في ذلك الحين، واحتجت إلى صور فوتوغرافية جيدة لي، أبيض في أسود على ورق مصقول، من أجل الدعاية. كان معي عازف «بيس جيتار» قال لي إن هناك مصورًا يعيش قريبًا على إحدى الجزر وشغله محترم. لم يكن عنده تلفون، فأرسلت له بطاقة بريد.

وزارني هو، رجل كبير في السن ومظهره غريب فعلًا، البنطلون الجينز والحذاء طويل الرقبة والحمَّالات البرتقالية، وأخرج كاميراته القديمة المهدود حيلها، التي لم يبدُ أنها ستعمل أصلًا، فقلت في عقل بالي: «آخ». أوقفني أمام حائط فاتح اللون وأنا ممسك بالساكسفون وقال لي أن أعزف وأن أستمر في العزف.

فعزفت. أول ثلاث دقائق تقريبًا، وقف صاحبنا في مكانه وهو ينظر إليَّ بتركيز، بتركيز شديد، بأهدأ عينين زرقاوين ممكن أن تراهما في حياتك.

بعد دقائق، بدأ يأخذ صورًا. ثم سألني إن كان يمكن أن أعزف مقطوعة «أوراق الخريف». وأنا أعرفها. عزفت نغمة اللحن الأساسية ربما عشر دقائق متواصلة بينما كان يواصل طقطقة الكاميرات، آخذًا لقطة بعد أخرى. ثم قال:

ـ تمام، أنجزت. سأحضر لك الصور غدًا.

في اليوم التالي أحضرها، وأصابتني حالة ذهول. كنت قد أخذت في السابق صورًا كثيرة لي، لكن تلك كانت الأفضل إلى حد بعيد. طلب خمسين دولارًا، وهو ما بدا لي أجرًا زهيدًا جدًّا. شكرني، وغادر، وفي طريقه للخارج سألني عن المكان الذي أعزف فيه، فقلت له:

ـ في «شورتي».

بعد ذلك ببضع ليالٍ، كنت ألقي نظرة على الجمهور فرأيته جالسًا إلى طاولة بعيدة في الركن، وهو ينصت بتركيز شديد. ما علينا، بدأ يحضر مرة كل أسبوع، ودائمًا يوم ثلاثاء، ودائمًا يشرب بيرة، من غير أن يفرط في الشرب.

أحيانًا في فترات الاستراحة أقترب منه وأتحدث إليه لبضع دقائق. كان هادئًا، ولا يتكلم كثيرًا، لكنه كان دمثًا فعلًا، ودائمًا يطلب

مني بأدب إن كنت لا أمانع في عزف «أوراق الخريف».

بعد مدة صرنا نعرف بعضنا البعض قليلًا. كنت أحب التردد على الميناء وأتأمل المياه والسفن؛ واتضح أنه يفعل الشيء نفسه. وهكذا وصلنا لنقطة أن نجلس معًا على مصطبة واحدة طوال وقت العصر ونتحدث. مجرد رجلين عجوزين يقتربان من خط النهاية، وقد بدآ يشعران قليلًا بأنهما خارج حسابات الدنيا، موضة قديمة ومهجورة.

كان يُحضر كلبه معه. كلب ظريف. أسماه «هايواي».

كان يفهم في السحر. ونحن، لاعبي موسيقى الجاز، نفهم في السحر أيضًا. ربما لهذا السبب تآلفنا. ساعات وأنا أعزف لحنًا عزفته من قبل ألف مرة، وفجأة تخرج مباشرة من الساكسفون أفكار جديدة جدًّا، سلسلة كاملة، من غير أن تعبر حتى بعقلك الواعي. قال لي إن التقاط الصور والحياة عمومًا يشبهان هذا كثيرًا، ثم أضاف:

ـ وممارسة الحب مع امرأة يحبها الواحد حقًّا.

كان يعمل على شيء ما، كان يحاول أن يحول الموسيقى إلى صور مرئية. قال لي:

ـ اسمع يا «جون»، أتعرف نغمة «الرِّف» التي تلعبها على الدوام تقريبًا في الدرجة الرابعة من مقطوعة «سوفيستيكيتد ليدي»؟ طيب، أظن أني اصطدتها على فيلم كاميرا ذاك النهار.

الضوء الذي سقط على المياه كان مضبوطًا تمامًا، ودخل أمام العدسة في اللحظة نفسها طائر بلشون أزرق. كنت قادرًا بجد على أن أرى بعينيَّ نغمتك «الرِّف» تلك بينما كنت أستمع إليها في رأسي وأنا أضغط زر حاجب العدسة.

قضى وقته كله في هذه المسألة؛ تحويل الموسيقى إلى صور، كان مهووسًا بها. لا أعرف كيف كان يكسب رزقه.

لم يتكلم كثيرًا عن حياته الخاصة قَطُّ. عرفت أنه سافر كثيرًا ليقوم بمهمات تصوير، لكني لم أعرف أي شيء أكثر من ذلك حتى يوم ما عندما سألته عن الشيء الفضي الصغير الذي يضعه في سلسلة حول رقبته. إذا نظرت من قريب، كان يمكنني أن أرى اسم «فرانشيسكا» عليه. فسألته:

ـ هل وراء ذلك حكاية ما؟

لم يقل أي شيء لوهلة قصيرة، أخذ يحدق في المياه وحسب. ثم قال:

ـ كم لديك من الوقت؟

وكان يوم اثنين والليلة إجازتي، لذا قلت له إنني لديَّ كل ما يلزم من وقت.

راح يحكي، كأنه صنبور وانفتح. ظل يتكلم طوال فترة العصر وأغلب الليل. شعرت أنه قد ظل محتفظًا بكل هذا في داخله زمنًا طويلًا.

لم يذكر قَطّ الاسم الأخير للمرأة، اسم عائلتها، ولم يقل أين جرى ذلك كله. ولكن، يا رجل، هذا «الروبرت كينكيد» كان يصبح شاعرًا عندما يتحدث عنها. لا بد أنها كانت شيئًا معتبرًا فعلًا، سيدة من النوع الذي يأخذ العقل. وبدأ يقتبس أجزاء من قطعة كان قد كتبها من أجلها ـ شيء ما عن البُعد «ي»، كما أذكر. وأتذكر أنني فكرت فيها كأنه أقرب إلى الارتجالات الموسيقية المتحررة من الشكل التي كان يلعبها «أورنيت كولمان».

وكم بكى، يا رجل، بينما كان يتحدث! بكى بدموع **كبيرة**، بتلك الدموع التي لا يبكيها إلا رجل مُسن، ولا يعزفها إلا ساكسفون. بعد ذلك، فهمت لماذا كان يطلب مني دائمًا أن أعزف مقطوعة «أوراق الخريف». وكم بدأت أحب هذا الرجل، في الحقيقة. أي شخص يقدر أن يحمل مثل هذه المشاعر لامرأة فهو نفسه يستحق أن يُحَب.

وهكذا أخذت أفكر في هذه الحكاية كلها، في قوة هذا الشيء الذي جمعه بتلك المرأة. وفيما كان يسميه «الطرق القديمة». وقلت لنفسي: «لا بد أن أعزف تلك القوة، علاقة الغرام تلك، وأن أجعل تلك الطرق القديمة تصدر من آلتي». كان في ذلك كله شيء غنائي ابن حرام.

وهكذا كتبت هذا اللحن؛ استغرق ثلاثة أشهر. أردته أن يكون بسيطًا وأنيقًا. ما أسهل الإتيان بأشياء معقدة، لكن البساطة هي التحدي الحقيقي. اشتغلت عليه يوميًّا حتى بدأت أصل إلى ما أريد، ثم اشتغلت عليه أكثر قليلًا ودوَّنت بعض النوتات لتحديد

العناصر الأساسية من أجل البيانو و«البيس جيتار». وأخيرًا، عزفته ذات ليلة.

كان حاضرًا بين الجمهور؛ ليلة ثلاثاء، كما هي عادته. على كلٍّ، كانت ليلة غير مزدحمة بالجمهور، ربما عشرون شخصًا فقط في المكان، ولا أحد يبدي اهتمامًا كبيرًا للفرقة.

كان جالسًا هناك، في سكينة، يستمع بتركيز كما كان يفعل دائمًا، وأعلنت في الميكروفون قائلًا:

ـ سوف أعزف لحنًا كتبته من أجل أحد أصدقائي. أسميتُ اللحن: «فرانشيسكا».

نظرت إليه عندما قلت ذلك. كان يحدق في زجاجة البيرة الخاصة به، لكن عندما قلت «فرانشيسكا» تطلَّع إليَّ ببطء، ومسَّد إلى الوراء شعره الرمادي الطويل بكلتا يديه، وأشعل سيجارة «كاميل»، وثبت عليَّ هاتين العينين الزرقاوين.

جعلت الساكسفون يصدح كما لم يفعل قبل ذلك قَطُّ؛ جعلت الساكسفون يبكي كل تلك الأميال والأعوام التي فصلت بينهما. كانت هناك نغمة صغيرة في الدرجة الأولى لها صوت كأنه ينطق بحروف اسمها ـ «فرانـ...شيسـ...كا».

عندما انتهيت، وقف منتصبًا تمامًا بجانب مائدته، وابتسم وأومأ لي، دفع حسابه وغادر. بعد ذلك، كنت دائمًا أعزفها عندما يمر بالمكان. من أجل تأليفي هذا اللحن، أهداني صورة فوتوغرافية

مؤطرة لجسر مغطى قديم. إنها معلقة هناك. لم يخبرني أبدًا أين التقطها، لكن مكتوب تحت توقيعه مباشرة «جسر روزمان».

ذات ليلة من ليالي الثلاثاء، منذ سبع أو ربما ثماني سنوات، لم يظهر في المكان. وفي الأسبوع التالي كذلك لم يكن هناك. فكرت أنه ربما يكون مريضًا أو حصل له شيء، وبدأت أشعر بالقلق، وذهبت للميناء وسألت في الأرجاء. لا أحد هناك كان يعرف شيئًا عنه. وأخيرًا، أخذت قاربًا حتى الجزيرة حيث كان يعيش. كان مسكنه كابينة قديمة بجانب الماء، بل في الحقيقة مجرد كوخ خشبي.

بينما أستطلع المكان، خرج لي أحد الجيران وسألني عما أفعل هناك، فقلت له. أخبرني الجار بأنه مات منذ عشرة أيام. كم أوجعني هذا الخبر، يا رجل! وما زلت موجوعًا. فقد أحببت ذلك الرجل كثيرًا جدًّا. كان هناك شيء ما في هذا القط، شيء ما. وكان عندي إحساس أنه يعرف أمورًا لا تعرفها البقية منا.

سألت هذا الجار عن الكلب. لم يكن يعرف عنه شيئًا، وقال إنه لم يكن يعرف «كينكيد» أيضًا. لذا اتصلت بمأوى الحيوانات الشريدة وبكل تأكيد كان «هايواي» العجوز لديهم هناك. ذهبت إليهم وأخذته معي وأعطيته هدية لابن شقيقي. وآخر مرة رأيته كان يبدو أنه والولد يعيشان قصة حب معًا، وارتاح قلبي لذلك.

على أي حال، ذلك كل ما لديَّ. لم يمضِ وقت طويل بعد أن عرفت ما جرى لـ«كينكيد» حتى بدأت ذراعي اليسرى تتخدر

عندما أعزف لأكثر من عشرين دقيقة. مشكلة لها علاقة بالفقرات. لذلك لم أعد أعزف.

مع ذلك يا رجل، ولأني مسحور بتلك القصة التي حكاها لي عنه وعن المرأة، ففي كل ليلة ثلاثاء أُخرج الساكسفون وأعزف ذلك اللحن الذي وضعته من أجله. أعزفه هنا، وأنا وحدي تمامًا.

ولسبب ما، دائمًا أنظر إلى تلك الصورة التي أهداني إياها بينما أعزف لحنه. فيها شيء ما، لا أعرفه، لكني لا أستطيع أن أنتزع عيني عن تلك الصورة بينما أعزف اللحن.

أقف هنا وحسب، قرب وقت الغسق، دافعًا هذه الآلة العجوز إلى النحيب، وأعزف ذلك اللحن من أجل رجل اسمه «روبرت كينكيد» وامرأة دعاها «فرانشيسكا».

الكاتب

وُلِد «روبرت جيمس والر» عام ١٩٣٩ في روكفورد، بولاية أيوا. إلى جانب كونه كاتبًا تُحقق كتبه أفضل المبيعات عالميًّا، فهو معروف بعمله كمصور فوتوغرافي وموسيقي. شغل «والر» منصب عميد كلية إدارة الأعمال في جامعة أيوا الجنوبية حتى عام ١٩٨٩، وتُوفي عام ٢٠١٧.

المترجم

محمد عبد النبي، كاتب ومترجم مصري، وُلِد في محافظة الدقهلية عام ١٩٧٧، وحصل على ليسانس اللغات والترجمة (قسم اللغة الإنجليزية) من جامعة الأزهر.

له كثير من المؤلفات بين القصة والرواية، وحاز جائزة ساويرس الأدبية أكثر من مرَّة. أحدث أعماله مجموعة «كان ياما كان»، ورواية «في غرفة العنكبوت»؛ التي فازت بجوائز مختلفة ووصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة بوكر العربية عام ٢٠١٧، وفازت أيضًا ترجمتها الفرنسية بجائزة معهد العالم العربي في باريس عام ٢٠١٩.

ترجم كثيرًا من العناوين المهمة، الأدبية وغير الأدبية، منها روايتان لهشام مطر، و«تمبكتو» لـ«بول أوستر»، و«ضوء الحرب» لـ«مايكل أونداتجي»، وكتاب «قلق السعي إلى المكانة» لـ«آلان دو بوتون». وصدرت له عن دار الكرمة ترجمة روايتَي: «مليون نافذة» لـ«جيرالد مرنين»، و«النورس جوناثان ليفنجستون» لـ«ريتشارد باخ».

يُسهم في مجال التدريب على الكتابة الأدبية منذ عام ٢٠٠٩ بورشة أدبية تحت عنوان «الحكاية وما فيها»، تخرَّج فيها عدد من الكُتَّاب، وله كتاب بالعنوان نفسه عن تقنيات الكتابة وأساليبها.

ترجمات الكرمة

١. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.

٢. سالباتييرَّا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.

٣. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٤. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٥. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.

٦. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.

٧. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.

٨. الإوزَّة البريَّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.

٩. عشيق الليدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.

١٠. الوعد - فريدريش دورِنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

١١. طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.

١٢. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

١٣. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.

١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.

١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.

١٦. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.

١٧. اعتراف منتصف الليل - جورج دوهاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.

١٨. الأمريكي الهادئ - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.

١٩. الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.

٢٠. أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٢١. مليون نافذة - جيرالد مُرْنين. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٢٢. البحيرة السوداء - هيلا هاسه. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.

٢٣. حلم - أرتور شنيتسلر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

٢٤. حرائق صغيرة في كل مكان - سيليسْت إنْج. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.

٢٥ . مذكرات شرلوك هولمز - آرثر كونان دويل. ترجمها عن الإنجليزية: أمين سلامة.

٢٦. كتاب المقبرة - نيل جايمان. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.

٢٧. نحن نعرف ما سيأتي - كريستا فولف. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

٢٨. ظلام مرئي: مذكرات الجنون - وليام ستايرون. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.

٢٩. المنزل الريفي (هواردز إند) - إ. م. فورستر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.

٣٠. اعتراف - ليف تولستوي. ترجمها عن الروسية: الأرشمندريت أنطونيوس بشير.

٣١. جسور مقاطعة ماديسون - روبرت جيمس والر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٣٢. الحرب والتربنتين - ستيفان هيرتمانس. ترجمتها عن الهولندية الفلامندية: أمينة عابد.

٣٣. سولاريس - ستانيسواف لَم. ترجمها عن البولندية: هاتف جنابي.

٣٤. الاعتذار - إيف إنسلر. ترجمته عن الإنجليزية: سها السباعي.

٣٥. شخص نعرفه - شاري لابينا. ترجمتها عن الإنجليزية: منى عبد الغني.